مقدمة
ألبرت في بكين

لندن، ٣ أبريل ١٨٤٨م، أُصيب رأس الملكة ڤيكتوريا، فقد ظلت الملكة جاثية ووجهها مضغوط في العمود الخشبي منذ عشرين دقيقة. كانت الملكة غاضبةً وخائفةً ومُنهكةً من أثر مقاومة الدموع؛ وها هي السماء الآن قد بدأت تمطر، ابتلَّ رداء الملكة برذاذ الماء، وتمنَّت الملكة فقط ألَّا يظن أحدٌ أنَّ ارتجافاتها كانت بسبب الخوف.

كان زوجها بجوارها تمامًا، ولو مدَّت فقط ذراعها لاستطاعت أن تضع يدها علىٰ كتفه، أو تُملِّس شعره الرطب - أي شيء لمنحه قوة لِمَا هو آتٍ. ليت الزمن يتوقف أو يسرع، وليتها هي وألبرت كانا في أي مكانٍ عدا هنا.

وهكذا انتظر كل من فيكتوريا وألبرت (دوق ولنجتون)، ونصف أفراد البلاط وهم جاثون علىٰ ركبهم في المطر، فمن الواضح أنَّه كانت ثمة مشكلة ما في النهر. كانت سفينة قيادة الأسطول الصيني كبيرةً جدًّا لترسو في رصيف إيست إنديا؛ ولهذا قام الحاكم تشي ينغ بدخوله الكبير إلىٰ لندن علىٰ متن سفينة بخارية مُدرَّعة أصغر تحمل اسمَه نفسه، ولكن حتىٰ سفينة تشي ينغ كانت كبيرة بشكلٍ غير مريح بالنسبة إلىٰ الرصيف في بلاكوول. كانت ستة قوارب سَحْبٍ تسحب السفينة، مع اضطراب كبير في الأرجاء، إلىٰ كل مكان، ولم يكن الحاكم تشي ينغ مُستمتعًا.

استطاعت الملكة فيكتوريا بطرف عينها أن ترىٰ فرقةً موسيقية صينيةً صغيرة علىٰ الرصيف. لقد بدت أثوابهم الحريرية وقبعاتهم المضحكة زاهيةً منذ ساعة،

ولكنَّها الآن أصبحت رثَّة بالكامل تحت المطر الإنجليزي. وبدأت الفرقة بعزف بعض الموسيقىٰ الشرقية النشاز لأربع مرات، ظانِّين أنَّ هودج تشي ينغ علىٰ وشك أن يُحمل إلىٰ الشاطئ، فتوقفوا في المرات الأربع، لكنَّهم أكملوا العزف في المرة الخامسة. شعرت فيكتوريا بمعدتها تتحرك، لا بُدَّ أنَّ تشي ينغ قد نزل إلىٰ الشاطئ أخيرًا. لقد كان الأمر يحدث بالفعل.

ثم مثل مبعوث تشي ينغ أمامهم مباشرة، كان قريبًا جدًّا منهم لدرجة أن تمكنت فيكتوريا من رؤية الخياطة علىٰ نعله. كانت خياطة لتنانين، تنفث الدخان واللهب. لقد بدت الخياطة أكثر دقة ممَّا بدت وصيفتها قادرات علىٰ فعله.

أسهب المبعوث في قراءة الإعلان الرسمي من بكين، وأُخبرت فيكتوريا بما في الإعلان: أنَّ المثل الأعلىٰ -الإمبراطور الرفيع ديو غوانغ- قد عَلِم برغبة الملكة البريطانية بتقديم الاحترام للسلطة الإمبراطورية، وأنَّ فيكتوريا قد توسلت من أجل فرصة تقديم الإتاوة والضرائب، مع تقديم الطاعة القصوىٰ وطلب الأوامر، وأنَّ الإمبراطور قد وافق علىٰ معاملة مملكتها باعتبارها إحدىٰ ولاياته الدُنيا، وأن يسمح لبريطانيا باتباع الصين.

ولكن الجميع في بريطانيا كان يعرف ماذا حدث بالفعل. في البداية تم الترحيب بالصينيين، فقد ساعدوا في تمويل الحرب ضد نابليون، والذي أغلق موانئ القارة في وجوههم، ولكن منذ عام ١٨١٥م كان الصينيون يبيعون بضائعهم بأسعار منخفضة جدًّا في موانئ بريطانيا، إلىٰ أن أوقفوا النشاط التجاري لمصانع غزل القطن في لانكشاير، وعندما احتج البريطانيون ورفعوا التعريفات الجمركية، أحرق الصينيون البحرية الملكية الفاخرة، وقتلوا الأدميرال نيلسون، ونهبوا كل مدينة علىٰ طول الساحل الجنوبي. لثمانية قرون تقريبًا تحدت إنجلترا كل الغزاة، ولكن اسم الملكة فيكتوريا الآن سيسقط إلىٰ الأبد في سجلات العار! لقد كان مُلكها بمثابة طقوس عربدية للقتل والنهب والخطف، والهزيمة والعار والموت، وها قد جاء تشي ينغ بنفسه، وهو المُنفِّذ الشرير لإرادة الإمبراطور ديو جوانغ؛ ليقطر مزيدًا من الانحراف والنفاق.

وفي اللحظة المناسبة أطلق مترجم فيكتوريا، الراكع خلفها، سعالًا مثاليًّا لم يسمعه سوىٰ الملكة، وكان السعال هو الإشارة: فقد وصل تابع تشي ينغ إلىٰ الجزء الخاص بتفويضها باعتبارها حاكمة تابعة. رفعت فيكتوريا جبينها عن الرصيف ووقفت كي تتسلم القبّعة الهمجية والعباءة التي دلت علىٰ إهانة أمّتها. ورأت الملكة لأول مرة تشي ينغ بصورة جيدة، ولم تكن تتوقع أن ترىٰ مثل ذلك الشخص الذكي، والذي بدا قويًّا وفي منتصف العمر! هل يمكن أن يكون هو الوحش الذي لطالما ارتعبت منه؟ ورأىٰ تشي ينغ الملكة فيكتوريا لأول مرة. لقد سبق وأن رأىٰ صورةً لها في أثناء تتويجها، ولكنَّها كانت أكثر بدانة، وأبسط ممَّا توقع، وصغيرة - صغيرة جدًّا. كانت مبتلة جدًّا، وبدا أنَّ أجزاء صغيرة وقطعًا من الطين من الرصيف قد انتشرت في جميع أنحاء وجهها. إنَّها لم تعرف حتىٰ كيف تظهر التذلل علىٰ نحو صحيح. يا لوقاحة الناس!

والآن جاءت لحظة الرعب الأكثر سوادًا، والتي لا يمكن تصوُّرها. وبانحناءات كبيرة، خطَا اثنان من الماندرين (موظفون كبار في الصين القديمة، م) من وراء تشي ينغ، وساعدَا ألبرت علىٰ الوقوف، وعلمت فيكتوريا أنَّه ينبغي لها ألَّا تصدر صوتًا أو إيماءة - وفي الحقيقة، لقد كانت مُجمَّدةً في مكانها، ولم تكن لتتمكن من الاحتجاج لو حاولت.

لقد قادوا ألبرت بعيدًا. وتحرك ألبرت ببطء، وبوقار كبير، ثم توقَّف وتطلع وراءه إلىٰ فيكتوريا؛ لقد كان العالم كامنًا في تلك النظرة!

وأغمي علىٰ فيكتوريا، لكنَّ أحد الحضور الصينيين أمسك بها قبل سقوطها علىٰ الرصيف؛ فلم يكن الأمر لينفع لو كانت لديك ملكة، حتىٰ ولو كانت ملكة أجنبية شيطانية، وقد آذت نفسها في مثل تلك اللحظة. كان ألبرت يمشي هائمًا علىٰ وجهه، وقد تجمدت تعابيره وتقطعت أنفاسه، غادر ألبرت بلده المختارة. وعلىٰ معبر السفينة، إلىٰ المقصورة الفاخرة المغلقة، وإلىٰ الصين، إلىٰ هناك كي يُوظّف ألبرت باعتباره أحد التابعين في المدينة المُحرَّمة من قِبَل الإمبراطور نفسه.

وفي الوقت الذي أفاقت فيه فيكتوريا، كان ألبرت قد ذهب. والآن، وأخيرًا! أضنىٰ البكاء الحار جسدها. قد يستغرق ألبرت نصف عام للوصول إلىٰ

بكين، والوقت نفسه للعودة؛ وقد ينتظر شهورًا أو سنين أكثر من ذلك بين أولئك الهمج إلىٰ أن يراه الإمبراطور. ماذا ستفعل؟ وكيف يمكن لها أن تحمي شعبها، وحدها؟ وكيف يمكنها أن تواجه هذا التشي ينغ الشرير بعد ما فعله معهم.

ولم يرجع ألبرت أبدًا! لقد وصل ألبرت إلىٰ بكين، حيث فاجأ البلاط بطلاقة لغته الصينية، ومعرفته بالكلاسيكيات الكونفوشيوسية، ولكن عقب وصوله انتشرت الأنباء عن ثورة الفلاحين الذين لا يمتلكون أراضي، وتحطيمهم لآلات الدَرْس في جميع أنحاء جنوب إنجلترا؛ ثم تفشَّت معارك الشوارع الدامية والعنيفة في نصف عواصم أوروبا، وبعد بضعة أيام تلقىٰ الإمبراطور رسالة من تشي ينغ تقترح أنَّه قد يكون من الأفضل أن يبقىٰ أميرًا موهوبًا، مثل ألبرت خارج البلاد بطريق آمن. كان كل هذا العنف تجاه الانتقال المؤلم إلىٰ الحداثة بقدر ما كان تجاه الإمبراطورية الصينية، ولكن لم تكن ثمة جدوىٰ من المجازفة مع مثل هؤلاء الناس المتمردين.

وهكذا بقي ألبرت في المدينة المُحرَّمة، وتخلص من بذّاته الإنجليزية وربَّىٰ شعره علىٰ شكل ضفيرة المانشو، وبمرور السنين، ازدادت معرفته بالكلاسيكيات الصينية عُمقًا. لقد كبر ألبرت في السنِّ، وحيدًا بين المعابد، وبعد قضاء ثلاثة عشر عامًا في قفصٍ مُذهَّب، مات ألبرت. وفي الطرف الآخر من العالم حبست فيكتوريا نفسها في الغرف الخاصة الباردة في قصر باكنجهام، وتجاهلت قادتها الاستعماريين. فقد أدار تشي ينغ بريطانيا من دونها، وهناك وفرة من أولئك الذين يُدعون بالسياسيين ممَّن قد يزحفون علىٰ بطونهم لإقامة علاقاتٍ تجارية مع تشي ينغ. لم تكن هناك جنازة رسمية عندما تُوفِّيت فيكتوريا في عام ١٩٠١م؛ فقط لا مبالاة وابتسامات ممتعضة لهلاك آخر بقايا العصر أمام الإمبراطورية الصينية.

لوتي في بالمورال

لم تحدث الأمور علىٰ ذلك النحو في الواقع بالطبع، أو علىٰ الأقل بعضها فقط حدث. لقد كانت هناك فعلًا سفينة صينية تسمىٰ تشي ينغ، وقد أبحرت فعلًا إلىٰ رصيف إيست إنديا في لندن في أبريل عام ١٨٤٨م، (الشكل ١)، ولكن هذه السفينة لم تكن سفينة حربية مُدرعة تحمل حاكمًا صينيًّا إلىٰ لندن: لقد كانت تشي ينغ الحقيقية مجرد سفينة شراعية خشبية طُلِيت ببهجة، فقد اشترىٰ رجال الأعمال البريطانيون في مستعمرة التاج هونغ كونغ السفينةَ الصغيرة قبل عامين، وقرروا أن الأمر سيكون مزحة لو قاموا بإرسالها مجددًا لبلدهم القديم.

وقد جاء كل من: الملكة فيكتوريا، والأمير ألبرت، ودوق ولنجتون إلىٰ النهر فعلًا، ولكن ليس من أجل التذلل أمام قائدهم الجديد. وبدلًا من ذلك، فقد جاؤوا بوصفهم سُيَّاحًا لمشاهدة أول سفينة صينية تظهر علىٰ الإطلاق في بريطانيا.

وقد سُمِّيت السفينة فعلًا علىٰ اسم حاكم مدينة جوان چو. ولكن لم يحدث أن تشي ينغ قبِل خضوع بريطانيا في عام ١٨٤٢م بعد تدمير البحرية الملكية. ففي الواقع، فاوض تشي ينغ علىٰ استسلام الصين في ذلك العام نفسه بعد أن قام أسطول بريطاني صغير بإغراق كل السفن الحربية التي تمكن من العثور عليها، وأسكت المدفعية الساحلية، وأغلق القناة الكبرىٰ التي تصل بكين بوادي يانجتسي الغني بالأرز، ممَّا هدد العاصمة بالمجاعة.

وقد كان الإمبراطور ديو غوانغ يحكم الصين فعلًا عام ١٨٤٨م، ولكنَّه لم يُفرِّق بين فيكتوريا وألبرت، في الحقيقة، لقد عاش الزوجان الملكيان في منتهىٰ

السعادة التي لم تتخللها سوىٰ أمزجة فيكتوريا، إلىٰ أن مات ألبرت في عام ١٨٦١م، والواقع أن فيكتوريا وألبرت هما اللذان قد مزَّقَا ديو جوانغ.

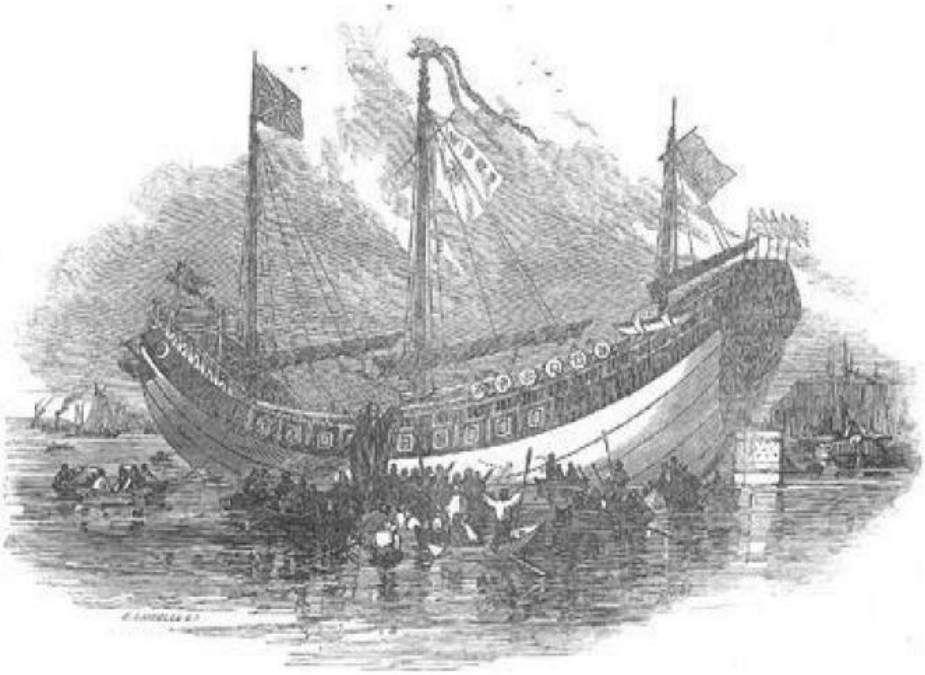

(موضع الشكل ١). سفينة تشي ينغ الحقيقية: اصطفت قوارب محملة باللندنيين في الخارج لرؤية السفينة في عام ١٨٤٨م، كما وثقها رسام من أخبار لندن المصورة.

غالبًا ما يكون التاريخ أغرب من الخيال، لقد حطم أبناء بلد فيكتوريا ديو جوانغ وفتتوا إمبراطوريته من أجل أكثر الخطايا البريطانية: فنجان شاي، (أو علىٰ نحوٍ أدق عدة مليارات من فناجين الشاي). في تسعينيات القرن الثامن عشر كانت شركة الهند الشرقية البريطانية (التي كانت تدير معظم جنوب آسيا بصفتها إقطاعية خاصة) تشحن (٢٣ مليون باوند) من الشاي الصيني الذي يغادر إلىٰ لندن سنويًا، وكانت الأرباح هائلةً، لكن كانت ثمة مشكلة واحدة: لم تكن الحكومة الصينية بدورها مهتمةً باستيراد السلع المصنَّعة في بريطانيا. كل ما أرادته الصين كان الفضة، وكان لدىٰ شركة الهند الشرقية مشاكلُ في جمع ما يكفي من الفضة للحفاظ علىٰ استمرار التجارة؛ لذلك كانت هناك الكثير من البهجة عندما أدرك

التجار أنَّه علىٰ الرغم ممَّا قد تريده الحكومة الصينية، فإن الشعب الصيني أراد شيئًا آخر: الأفيون. وكانت أفضل أنواع الأفيون تنمو في الهند، والتي كانت الشركة تسيطر عليها؛ ولذا في جوانغ چو (الميناء الصيني حيث يتاجر الأجانب) باع التجار الأفيونَ من أجل الفضة، واستخدموا الفضة لشراء الشاي، ثم باعوا الشاي بأرباح أكبر في لندن.

وكما يغلب في التجارة، فإنَّ حلَّ مشكلة ما يخلقُ لتوِّه مشكلة أخرىٰ! لقد كان الهنود يمضغون الأفيون، أما البريطانيون فقد أذابوه وشربوه، مستهلكين (من ١٠ إلىٰ ٢٠ طنًّا) سنويًا، (وذهب بعض الأفيون لتهدئة الرُضَّع)، ونتج عن كل من الطريقتين (المضع والشرب، م) تأثيرٌ مخدرٌ بشكلٍ طفيف، بشكل يكفي لإلهام الشاعر المتفرد، وتحفيز بضعة دوقات وإيرلات للانغماس في ملذات جديدة، ولكن لم يكن ثمة ما يمكن القلق بشأنه، لكنَّ الصينيين من ناحية أخرىٰ كانوا يدخنونه، ولم يكن الفرق بين الطريقتين مختلفًا عن الفرق بين مضغ أوراق الكوكا وإشعال البايب، وقد احتال تجار المخدرات لتجاهل هذا الاختلاف، ولكن ديو جوانغ لم يفعل، وفي عام ١٨٣٩م أعلن ديو جوانغ الحرب علىٰ المخدرات.

لقد كانت حربًا غريبة، سرعان ما تحَّولت إلىٰ مواجهة شخصية بين قيصر المخدرات التابع لديو جوانغ، وهو المفوَّض لين زاكسو، ورقيب التجارة البريطاني في جوان چو الكابتن تشارلز إليوت، وعندما أدرك إليوت أنَّه يخسر، أقنع التجار بالتخلي عن (١٧٠٠ طن) مذهلة من الأفيون لصالح لين؛ واستطاع أن يجعل التجار يوافقون علىٰ هذا بأن يضمن لهم أنَّ الحكومة البريطانية سوف تعوضهم عن خسائرهم، ولم يعرف التجار ما إذا كان إليوت بالفعل لديه السلطة للوفاء بوعده هذا، لكنَّهم تمسّكوا بالعرض رغم ذلك، وحصل لين علىٰ الأفيون، وحفظ إليوت ماء وجهه وأبقىٰ علىٰ استمرار تجارة الشاي، وحصل التجار علىٰ أعلىٰ سعر (بالإضافة إلىٰ الفائدة والشحن) في مقابل مخدراتهم. لقد فاز الجميع.

فاز الجميع، فيما عدا اللورد ملبورن، رئيس وزراء بريطانيا. لم يفز ملبورن، الذي كان مُتوقعًا منه أن يعثر علىٰ مليوني جنيه إسترليني لتعويض تجار المخدرات. لا بُدَّ أنه كان ضربًا من الجنون أن يضع قبطان بحري رئيسَ الوزراء

في وضعٍ كهذا، ولكن إليوت علم أنَّ بإمكانه الاعتماد علىٰ مجتمع التجارة ولوبي البرلمان لتعويض المبلغ، وهكذا تكاثفت المصالح الشخصية والسياسية والمالية حول ملبورن، حتىٰ لم يعد لديه خيار سوىٰ الدفع، ثم إرسال حملة لجعل الحكومة الصينية تعوض بريطانيا عن الأفيون المُصادَر (الشكل ٢).

ولم تكن هذه أفضل أوقات الإمبراطورية البريطانية، ورغم أنَّ التشبيهات المعاصرة ليست دقيقة أبدًا، فإنَّ الأمر كان كما لو أنَّ ردًّا علىٰ قيام وكالة مكافحة المخدرات الأمريكية بحملة واسعة، انتشر «كارتل تيخوانا» في الحكومة المكسيكية لشق طريقه إلىٰ سان دييغو، مطالبًا البيت الأبيض بتعويض أباطرة المخدرات بالقيمة السوقية للكوكايين الذي صُودر، (بالإضافة إلىٰ الفائدة، ورسوم النقل)، وكذلك دفع تكاليف الحملة العسكرية. تخيَّل أيضًا أنَّ أسطولًا مكسيكيًا، بينما كان في الجوار، استولىٰ علىٰ جزيرة كاتالينا باعتبارها قاعدةً للعمليات المستقبلية، وهدَّد بحصار واشنطن حتىٰ يعطي الكونجرس أباطرة المخدرات في تيخوانا حقوقَ الاحتكار في لوس أنجلوس وشيكاغو ونيويورك.

والفرق بالطبع هو أنَّ المكسيك ليست في موضع يسمح لها بقصف سان دييغو، بينما في عام ١٨٣٩م كانت بريطانيا تستطيع أن تفعل ما تشاء أيًّا كان، وضربت السفن البريطانية بالدفاعات الصينية عرض الحائط، ووقَّع تشي ينغ معاهدة مُذِلَّة، تقتضي فتح الصين أمام التجارة والمُبشِّرين. ولم تُنقل زوجات ديو جوانغ إلىٰ لندن بالطريقة ذاتها التي ذهب بها ألبرت إلىٰ بكين في المشهد الذي تخيلته في بداية هذه المقدمة، ولكن (حرب الأفيون) قد حطمت ديو غوانغ رغم ذلك، لقد خذل (٣٠٠ مليون) من رعيَّته، وخان ألفي سنة من التقاليد، وكان محقًّا في الشعور بأنَّه فاشل، لقد كانت الصين تتمزق؛ حيث ازداد الإدمان، وفقدت الدولة السيطرة علىٰ الأمور، وانهارت الأعراف.

موضع (الصورة ١-٢) ليست أفضل أوقاتهم: السفن البريطانية تفجّر السفن الحربية الصينية في نهر يانغتسي في عام ١٨٤٢م. في أقصىٰ اليمين سفينة نيميسيس (إله الانتقام) أول سفينة حربية من الحديد بالكامل، وهي اسم علىٰ مسمًّىٰ.

وإلىٰ هذا العالم الغامض أتىٰ هونغ شيوكوين، أحد المرشحين الراسبين في امتحان الخدمة المدنية، نشأ خارج جوان چو، وسافر أربع مرات إليها لأداء امتحانات دخول الخدمة المدنية الشاقة؛ وقد رسب في المرات الأربع. وأخيرًا، في عام ١٨٤٣م، تدهورت صحة هونغ، وكان لا بُدَّ من نقله إلىٰ قريته. وفي أحلامه المحمومة أخذته الملائكة إلىٰ السماء، والتقىٰ هناك رجلًا قيل له إنَّه شقيقه الأكبر، وقد وقفا كتفًا بكتف يحاربان الشياطين تحت بصر أبيهما الملتحي. لم يبدُ هذا الحلم ذا معنىٰ لأحد في القرية، وبدا أنَّ هونغ قد نسي أمره لعدة سنوات، إلىٰ أن جاء يوم فتح فيه هونغ كتابًا أُعطي له في جوان چو في إحدىٰ سفرياته إلىٰ قاعة الامتحانات، وكان الكتاب يُلخِّص النصوص المقدسة المسيحية، وأدرك هونغ أنَّه يحتوي علىٰ مفتاح تحقيق حلمه. لقد كان الأخ في

حلمه -بوضوح- هو يسوع، ممَّا جعل من هونغ ابن الإله الصيني. لقد طارد هو ويسوع الشياطين من السماء، ولكن بدا أنَّ الحلم يعني أنَّ الإله أراد من هونغ أن يطردهم من الأرض أيضًا، وبتلفيق مزيج من المسيحية الإنجيلية والكونفوشيوسية أعلن هونغ المملكة السماوية ذات السلام الأعظم، واحتشد الفلاحون الغاضبون واللصوص تحت رايته. وبحلول عام ١٨٥٠م هزمت جماعته المتباينة الجيوشَ الإمبراطورية المضطربة التي أُرسلت ضده، واتبع هونغ إرادة الإله بإدخال إصلاحات اجتماعية جذرية؛ فقام بإعادة توزيع الأراضي، وشرَّع حقوقًا متساوية للمرأة، ومنع تقليد طيِّ الأقدام، أو القدم الذهبية (سيأتي شرحه لاحقًا، م).

وفي أوائل ستينيات القرن التاسع عشر، حين كان الأمريكيون يذبحون بعضهم بعضًا بالمدفعية والبنادق التكرارية في أول حرب حديثة في العالم، كان الصينيون يفعلون الشيء نفسه بسيوف البحَّارة والرماح في آخر حرب تقليدية في العالم. وقد تفوقت النسخة التقليدية علىٰ النسخة الحديثة من حيث الرعب المطلق. تُوفي ٢٠ مليون شخص، معظمهم بسبب المجاعة والمرض، واستغل الدبلوماسيون والجنرالات الغربيون الفوضىٰ للاندفاع أبعد داخل شرق آسيا. وفي عام ١٨٥٤م، بحثًا عن محطات الفحم بين كاليفورنيا والصين، أجبر القائد البحري الأمريكي، ماثيو بيري، اليابان علىٰ فتح موانئها. وفي عام ١٨٥٨م، فازت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بتنازلات جديدة من قِبَل الصين. وقد حاول الإمبراطور شيان فنغ، والذي كان -بشكل مفهوم- يكره الأجانب الشياطين الذين دمروا والده ديو جوانغ، والآن هم يستغلون حربه ضد هونغ - حاول التهرُّب من تلك المعاهدة الجديدة، ولكن عندما أصبح الأمر عسيرًا علىٰ شيان فنغ؛ قدَّمت له الحكومتان البريطانية والفرنسية عرضًا لم يستطع رفضه. لقد ساروا إلىٰ بكين، لكن شيان فنغ تراجع سريعًا تراجعًا مُهينًا إلىٰ منطقة قريبة للعطلات الصيفية. لكن الأوروبيين حينئذٍ أحرقوا قصره الصيفي الجميل، فدعوه يعرف أنَّ بإمكانهم فعل الشيء نفسه للمدينة المحرَّمة متىٰ حلا لهم الأمر، واستسلم شيان فنغ. ومع تحطمه علىٰ نحو أسوأ من والده، رفض شيان فنغ مغادرة المكان الذي يختبئ فيه، أو أن يلتقي مجددًا بمسؤوليه أبدًا، واعتزل الحياة إلىٰ المخدرات والجنس، وتُوفي شيان فنغ بعد عام لاحق، وتوفي الأمير ألبرت بعده بشهورٍ

قليلة. وبالرغم من قضاء سنوات في القيام بحملات لإقناع الحكومة البريطانية بأنَّ نظام الصرف الرديء ينشر الأمراض، فقد تُوفي ألبرت علىٰ الأرجح بالتيفود المنتقل عبر أنابيب المجاري البائسة لقلعة ويندسور. والأكثر حزنًا: أنَّ فيكتوريا -التي كانت مولعة بشدة بالمواسير الحديثة كما كان ألبرت- كانت في الحمام عندما تُوفي ألبرت.

وبعد أن حُرمت فيكتوريا من حُبِّ حياتها غرقت في التغيرات المزاجية والكآبة، لكنَّها لم تكن وحيدة تمامًا، فقد أهداها الضباط البريطانيون أحد النفائس التي سلبوها من القصر الصيفي في بكين: كلب بكيني، وقد أسمته فيكتوريا «لوتي».

الحتمية

لماذا اتبع التاريخ الطريق الذي أخذ لوتي إلىٰ قلعة بالمورال، حيث كبر لوتي في السن مع فيكتوريا، بدلًا من الطريق الذي أخذ ألبرت لدراسة كونفوشيوس في بكين؟ لماذا شقت السفن البريطانية طريقها في نهر يانغتسي في عام ١٨٤٢م، بدلًا من أن تفعل ذلك مثيلاتها الصينية في نهر التايمز؟

وبعبارة أكثر صراحة: لماذا يهيمن الغرب؟

قد يبدو القول بأنَّ الغرب «يهيمن» ثقيلًا بعض الشيء؛ فأيًّا كان في النهاية تعريفنا لـ «الغرب»، (وهو سؤال سأعود إليه بعد صفحات قليلة)، لم يُدِر الغربيون تمامًا حكومةً عالميةً منذ عام ١٨٤٠م، وهم يخفقون بانتظام في الوصول لمبتغاهم. وكثير منَّا كبار بما يكفي لتذكر تدافع أمريكا المخزي للخروج من سايغون (الآن تُسمىٰ مدينة هو تشي مِن) في عام ١٩٧٥م، والطريقة التي أجبرت بها المصانع اليابانية منافسيها الغربيين علىٰ مغادرة السوق في الثمانينيات. بل ولدىٰ أعداد متزايدة منَّا الآن الشعور بأنَّ كل ما نشتريه مصنوع في الصين. ومع ذلك، فمن الواضح أيضًا أنَّه في السنوات المائة الأخيرة أو ما يقرب من ذلك، قام الغربيون بشحن الجيوش إلىٰ آسيا، وليس العكس. لقد عانت حكومات شرق آسيا من الرأسمالية الغربية والنظريات الشيوعية، ولكن لم تحاول الحكومات الغربية أن تحكم علىٰ غرار الكونفوشية أو الطاوية. وغالبًا ما يتواصل الشرقيون عبر حواجز لغوية باللغة الإنجليزية، ونادرًا ما يتواصل الأوروبيون باللغة المندرية أو اليابانية. وكما أخبر مُحامٍ ماليزي بصراحة الصحافي البريطاني مارتن جاكز:

«أنا أرتدي ثيابك، وأتكلم لغتك، أشاهد أفلامك، وتاريخ اليوم هو أي تاريخ مهما يكن لأنكم تقولون ذلك».

والقائمة تطول. فمنذ خطف رجال فيكتوريا لوتي، احتفظ الغرب بهيمنةٍ عالمية لم يسبق لها مثيل في التاريخ.

وهدفي هو تفسير هذا.

قد لا يبدو للوهلة الأولىٰ، أنَّني قد خوَّلت نفسي مهمة صعبة جدًّا. فالجميع تقريبًا يتفقون علىٰ أنَّ الغرب يُهيمن؛ لأنَّ الثورة الصناعية قد حدثت هناك، وليس في الشرق. ففي القرن الثامن عشر أطلق رواد الأعمال البريطانيون طاقات البخار والفحم. ومنحت المصانع والسكك الحديدية والسفن أوروبيي القرن التاسع عشر وأمريكييه القدرةَ علىٰ بث القوة عالميًّا، وأتاحت الطائرات وأجهزة الكمبيوتر والأسلحة النووية في القرن العشرين لخلفائهم ترسيخَ هذه الهيمنة.

ولم يعنِ هذا أنَّه كان لا بُدَّ أن يؤول كل شيء لِمَا آلَ إليه تمامًا، فلو لم يلوِ الكابتن إليوت ذراع اللورد ملبورن في عام ١٨٣٩م؛ لكان من غير المحتمل أن تهاجم بريطانيا الصين ذلك العام، ولو أولىٰ المفوِّض لين اهتمامًا أكبر للدفاعات الساحلية؛ لكان من الممكن ألَّا ينجح البريطانيون بهذه السهولة. ولكن هذا يعني أنَّه بغضِّ النظر عن متىٰ بلغت الأمور ذروتها، ومن الذين جلسوا علىٰ العروش، أو الذين فازوا في الانتخابات، أو قادوا جيوش الغرب؛ فإنَّ الغرب -دائمًا- كان سيفوز في القرن التاسع عشر. لقد لخَّص ذلك الشاعر والسياسي البريطاني هايلاير بيلوك بشكل جميل في عام ١٨٩٨م قائلًا: «مهما يحدث، فلدينا مدفع مكسيم وهم لا يملكونه».

وهذه نهاية القصة.

بطبيعة الحال، وباستثناء أنَّ هذه ليست نهاية القصة، فإنَّها تُثير فقط سؤالًا جديدًا: لماذا امتلك الغرب مدفع مكسيم في حين لم يمتلكه البقية؟ هذا هو السؤال الأول الذي أطرحه؛ لأنَّ الإجابة عنه تخبرنا لماذا يهيمن الغرب اليوم، وتسلحًا بتلك الإجابة، يمكننا أن نطرح سؤالًا ثانيًا. إنَّ أحد أسباب اهتمام

الناس بسؤال لماذا يهيمن الغرب هو أنَّهم يريدون معرفة ما إذا كانت تلك الهيمنة ستستمر، ومدة استمرارها وكيفية استمرارها، أو بشكل آخر: ما الذي سيحدث بعد ذلك؟

ازداد هذا السؤال إلحاحًا بانقضاء القرن العشرين، وبزغت اليابان باعتبارها قوة رئيسة، وأصبحت أمرًا لا مفرَّ منه في بدايات القرن الحادي والعشرين. فاقتصاد الصين يتضاعف في الحجم كل ست سنوات، وربما سيصبح الأكبر في العالم قبل عام ٢٠٣٠م. وبينما أنا أكتب الآن في أوائل عام ٢٠١٠م، فإنَّ معظم الاقتصاديين يتطلعون إلىٰ الصين، وليس إلىٰ الولايات المتحدة أو أوروبا؛ لإعادة تشغيل المحرك الاقتصادي للعالم. لقد استضافت الصين دورة الألعاب الأولمبية في عام ٢٠٠٨م، وتمشَّىٰ رائدًا فضاءٍ صينيان في الفضاء. ولدىٰ الصين وكوريا الشمالية أسلحة نووية، والاستراتيجيون الغربيون قلقون بشأن كيف ستتكيف الولايات المتحدة مع تزايد نفوذ الصين.

ويُعدُّ سؤال: (إلىٰ متىٰ سيظل الغرب في القمة؟) سؤالًا مُلِحًّا!

يشتهر المؤرخون المحترفون بأنَّهم مُتنبِّئون سيئون لدرجة أنَّ معظمهم يرفض الحديث عن المستقبل علىٰ الإطلاق. وكلما فكرت في سبب هيمنة الغرب؛ أدركت أنَّ ونستون تشرشل الذي اشتغل بالتاريخ لبعض الوقت قد فهم الأمور بشكل أفضل من معظم المتخصصين. فقد أصرَّ تشرشل أنَّه «كلَّما نظرت أبعد إلىٰ الوراء أمكنك أن ترىٰ أبعد إلىٰ الأمام». ومن هذا المنطلق (حتىٰ ولو لم تكن إجاباتي لتروق لتشرشل)، فسأشير إلىٰ أنَّ معرفة: (لماذا يهيمن الغرب؟) تمنحنا معنىٰ جيدًا عن كيف ستؤول الأمور في القرن الحادي والعشرين.

ولست بالطبع أول شخص يتأمل في هذا الأمر؛ فإنَّ عُمْر السؤال هو ٢٥٠ سنة. وقلَّما برز السؤال قبل القرن الثامن عشر؛ لأنَّه -بصراحة- لم يكن له معنىٰ حينئذٍ. وعندما بدأ المفكرون الأوروبيون في التفكير جديًّا بشأن الصين في القرن السابع عشر؛ شعر معظمهم بالصغر إزاء عتاقة الشرق ورُقيِّه، وكانوا محقين، مثلما قال الشرقيون القلائل الذين أولوا الغرب الاهتمام. لقد أُعجب بعض المسؤولين الصينيين بساعات الغربيين العبقرية، ومدافعهم الشيطانية، وتقاويمهم

الدقيقة، لكنَّهم لم يروا قيمة كبيرة في محاكاة هؤلاء الأجانب العاديين. ولو علم أباطرة الصين في القرن الثامن عشر أنَّ الفلاسفة الفرنسيين -مثل فولتير- يكتبون قصائد في مدحهم، فلربما اعتقدوا أنَّ هذا بالضبط هو ما كان علىٰ الفلاسفة الفرنسيين أن يفعلوه.

ولكن من اللحظة الأولىٰ تقريبًا التي ملأت فيها المصانع سماء إنجلترا بالدخان، أدرك المفكرون الأوروبيون أنَّ ثمة مشكلة. ومقارنة بمشكلات أخرىٰ، لم تكن تلك المشكلة مستعصيةً: فهم -فيما يبدو- يسيطرون علىٰ العالم، ولكنَّهم لم يكونوا يعرفون السبب.

ودخل الثوريون والرجعيون والرومانتيكيون والواقعيون داخل أوروبا في نوبة تكهنات حول: لماذا كان الغرب مهيمنًا؟ وأنتجوا مجموعة محيِّرة من التنبؤات والنظريات. إنَّ أفضل طريقة للشروع في السؤال عن سبب هيمنة الغرب هي: فصل هذه النظريات إلىٰ مدرستين فكريتين إجماليتين، واللتيْن سأسميهما: (نظريات المدىٰ الطويل الحتمية)، و(نظريات المدىٰ القصير العَرَضية). وغني عن القول إنَّه ليست كل فكرة تتسق تمامًا مع هذا المعسكر أو ذاك، لكن هذا التقسيم لا يزال وسيلة مفيدة للتركيز علىٰ الأمور.

إنَّ الفكرة المُوحَّدة وراء نظريات المدىٰ الطويل الحتمية هي: أنَّه منذ زمن سحيق كان هناك عامل حاسم جعل الشرق والغرب مختلفين بشكلٍ ضخم وغير قابل للتغيير، وأوجب أنَّ الثورة الصناعية سوف تحدث في الغرب. ويختلف أنصار نظريات المدىٰ الطويل -بشدة- حول ماهية ذلك العامل، ومتىٰ بدأت فعَّاليته؟ يركز البعض علىٰ القوىٰ المادية، مثل: تغيُّر المناخ، أو التضاريس، أو الموارد الطبيعية؛ بينما يُشير آخرون إلىٰ أمور أقل مادية، مثل: الثقافة، والسياسة، والدين. ويميل أولئك الذين يُفضِّلون القوىٰ المادية إلىٰ اعتبار «المدىٰ الطويل» طويلًا جدًّا حقًّا. فالبعض يرجع إلىٰ الوراء بمقدار خمسة عشر ألف سنة إلىٰ نهاية العصر الجليدي، وبعضهم يرجع لأكثر من ذلك. أمَّا أولئك الذين يؤكدون علىٰ أهمية الثقافة، فعادة ما يعتبرون المدىٰ الطويل أقصر قليلًا، فيعودون فقط بمقدار ألف سنة إلىٰ العصور الوسطىٰ، أو بمقدار ألفين وخمسمائة سنة

لعصر الفيلسوف الإغريقي سقراط، والحكيم الصيني كونفوشيوس. ولكن الشيء الوحيد الذي يتفق عليه أنصار نظريات المدىٰ الطويل هو: أنَّ البريطانيين الذين شقُّوا طريقهم إلىٰ شانغهاي (عام ١٨٤٠م)، والأمريكيين الذين فتحوا موانئ اليابان عنوة بعد عقد لاحقًا كانوا مجرد وكلاء/فاعلين غير مدركين لسلسلة الأحداث التي انطلقت منذ قرن سبق! وسيقول أحد الذين يؤمنون بنظرية المدىٰ الطويل: إنني كنت سخيفًا في بدئي لهذا الكتاب بمقارنة سيناريوهات ألبرت في بكين ولوتي في بالْمورال؛ فالملكة فيكتوريا كانت ستفوز في جميع الأحوال: كانت النتيجة حتمية لأجيال لا تُعدُّ.

وفي الفترة ما بين عامي ١٧٥٠، و١٩٥٠م تقريبًا، كانت كل التعليلات لهيمنة الغرب تتفاوت في إطار نظرية (المدىٰ الطويل الحتمية). وكانت النسخة الأكثر شهرة هي أنَّ الأوروبيين ببساطة يتفوقون علىٰ الجميع حضاريًّا، فمنذ أيام احتضار الإمبراطورية الرومانية عرَّف معظم الأوروبيين أنفسهم بوصفهم مسيحيين أولًا وقبل كل شيء، مُتعقِّبين جذورهم إلىٰ العهد الجديد، ولكن في محاولةٍ لشرح السبب الذي من أجله يُهيمن الغرب الآن، تصورَ بعضُ المفكرين من القرن الثامن عشر أصلًا بديلًا للأوروبيين، ويجادلون بأنَّه منذ ألفين وخمسمائة عام مضت أنشأ الإغريق حضارةً فريدةً، ذات منطق وابتكار وحرية، وقد وضع ذلك أوروبا علىٰ مسارٍ مختلفٍ و(أفضل) من بقيَّة العالم. وقد أقرُّوا بأنَّ الشرق كان يملك معرفةً هو الآخر، لكنَّ التقاليد الشرقية كانت مضطربة ومحافظة وذات طبيعة هرمية إلىٰ حدٍّ كبيرٍ، وبشكلٍ لا يُمكِّنُها من منافسة الفكر الغربي. وقد خلص العديدُ من الأوروبيين إلىٰ أنَّهم (أي: الأوروبيين، م) كانوا يغزون الآخرين جميعًا؛ لأنَّ الحضارة هي التي فرضت عليهم ذلك.

وبحلول عام ١٩٠٠م اقتنع المفكرون الشرقيون بهذه النظرية، في ظلّ كفاحهم لتقبُّل تفوق الغرب الاقتصادي والعسكري، علىٰ الرغم من تحريفهم لها بعض الشيء. وفي غضون عشرين عامًا منذ وصول الكومودور بيري إلىٰ خليج طوكيو، بدأت حركة «التحضر والتنوير» بترجمة كلاسيكيات التنوير الفرنسي والليبرالية البريطانية إلىٰ اللغة اليابانية، ودافعت الحركة عن ضرورة اللحاق

بالغرب من خلال الديمقراطية، والثورة الصناعية، وتحرير المرأة. بل أراد البعض أن يجعل اللغة الإنجليزية هي اللغة الوطنية. فقد كانت المشكلة، كما أصرَّ بعض المفكرين في سبعينيات القرن التاسع عشر، مثل فوكوزاوا يوكيشي - طويلةَ المدىٰ؛ إذ كانت الصين مصدرًا لقدرٍ كبيرٍ من الحضارة اليابانية، لكن الصين اعترتها أخطاء فادحة في الماضي البعيد. ونتيجة لذلك، كانت اليابان «شبه متحضرة»، وجادل فوكوزاوا أنَّه بالرغم من كون تلك المشكلة طويلة الأمد فإنَّها لم تكن حتمية. فمن خلال نبذ الصين، تستطيع اليابان أن تصبح متحضرةً بالكامل.

بينما لم يكن لدىٰ المفكرين الصينيين -علىٰ العكس من ذلك- مَن ينبذون سوىٰ أنفسهم. وفي ستينيات القرن التاسع عشر جادلت حركة لتعزيز الهوية بأنَّ التقاليد الصينية ما زالت سليمة بالأساس، وأنَّ الصين يلزمها فقط صناعة بضع بواخر، وشراء بعض البنادق الأجنبية. واتضح أنَّ ذلك كان خاطئًا، ففي عام ١٨٩٥م فاجأ جيش ياباني حديث قلعةً صينية بزحفٍ جسور، واستولىٰ علىٰ بنادقها أجنبية الصنع، وفتح تلك البنادق في وجه البواخر الصينية. ولذا أصبحت المشكلة أعمق بكثير من امتلاك الأسلحة المناسبة. وبحلول عام ١٩٠٠م كان المفكرون الصينيون يتَّبعون الريادة اليابانية، فقاموا بترجمة الكتب الغربية عن التطور والاقتصاد. وقد خلصوا، مثل فوكوزاوا، إلىٰ أنَّ هيمنة الغرب طويلة المدىٰ، ولكنَّها لم تكن حتمية؛ وبنبذ ماضيها يمكن للصين اللحاق بالركب أيضًا.

ولكن بعض الغربيين المُتبنِّيين لنظرية المدىٰ الطويل ظنُّوا -ببساطة- أنَّه لا يوجد ما يمكن أن يفعله الشرق، وزعموا أنَّ الحضارة هي التي جعلت الغرب أفضل، لكنَّها لم تكن التفسير النهائي لهيمنة الغرب؛ لأنَّ الحضارة نفسها كانت لها أسباب مادية. واعتقد البعض أنَّ الشرق كان مضطربًا ومعتلًا لكي يطور الناس حضارة خلَّاقة مثل حضارة الغرب؛ أو ربما كانت هناك أجساد كثيرة، تستهلك جميع الفائض، وتبقي مستوىٰ المعيشة منخفضًا، وتمنع ظهور مجتمع علىٰ غرار المجتمع الغربي الليبرالي التطلعي.

تأتي نظريات المدىٰ الطويل الحتمية في كل لونٍ سياسي، ولكنَّ نسخة كارل ماركس ظلَّت هي الأهم والأكثر تأثيرًا. في الأيام نفسها التي كانت القوات البريطانية تحرّر فيها لوتي، أشار ماركس -الذي كان آنئذٍ يكتب عمودًا عن الصين في صحيفة نيويورك ديلي تريبيون- إلىٰ أنَّ السياسة كانت العامل الحقيقي الذي وطد الهيمنة الغربية. وزعم ماركس أنَّ الدول الشرقية ظلت لآلاف السنوات ذات مركزية وقوة كبيرتين، ممَّا أدىٰ بشكل أساسي إلىٰ توقف تدفق التاريخ. وقد نهضت أوروبا من العصور الوسطىٰ من خلال الإقطاع إلىٰ الرأسمالية، وكانت الثورات البروليتارية علىٰ وشك التبشير بالشيوعية، ولكنَّ الشرق كان منغلقًا في الاستبداد، ولم يكن بإمكانه أن يشارك في المسار التقدمي للغرب. ولمَّا لم يَؤُل الغرب تمامًا إلىٰ ما تنبأ به ماركس، قام الشيوعيون اللَّاحقون (خاصة لينين وأتباعه) بتطوير نظريات ماركس بزعمهم أنَّ طليعة ثورية قد تهز الشرق وتوقظه من سباته السحيق. وأصروا أنَّ هذا سيحدث، فقط إذا تمكَّنت تلك الطليعة من تحطيم المجتمع القديم المتحجر بأي ثمن. ولم تكن نظرية المدىٰ الطويل هي السبب الوحيد لارتكاب ماو تسي تونغ وپول پوت، وأتباع كيم في كوريا الشمالية تلك الفظائع في حق شعوبهم، ولكنَّها تتحمل عبئًا ثقيلًا من المسؤولية.

طوال القرن العشرين استمرت حركة معقدة في الغرب باكتشاف المؤرخين لحقائق لم تبدُ منسجمةً مع قصص نظريات المدىٰ الطويل الحتمية، وغيَّر أتباع تلك الظريات من نظرياتهم لاستيعابها. علىٰ سبيل المثال: لا ينازع أحد الآن أنَّه ببداية العصر الكبير للاكتشافات البحرية في أوروبا، كانت الملاحة الصينية أكثر تقدمًا بكثير، وكان البحَّارة الصينيون يعرفون بالفعل سواحل الهند والجزيرة العربية وشرق أفريقيا، وربما أستراليا. وعندما أبحر الأدميرال المخصيّ چين هي من نانچينج إلىٰ سريلانكا في عام ١٤٠٥م كان يقود نحو ثلاثمائة سفينة. وكانت هناك ناقلات تحمل مياه الشرب، و«سفن كنوز» ضخمة ذات دفَّات متطورة ومقصورات ضد الماء وأجهزة إرسال متطورة. ومن بين الـ «٢٧ ألفًا» من بحَّارته كان هناك ١٨٠ طبيبًا وصيدليًّا. وعلىٰ النقيض من ذلك، عندما أبحر كريستوفر كولومبوس من قادس في عام ١٤٩٢م، كان يقود ٩٠ رجلًا في ثلاث سفن. وكانت أكبر سفنه تزيح بالكاد قدرًا من الماء يبلغ واحدًا علىٰ الثلاثين ممَّا أزاحت سفينة چين؛

وبطول ٨٥ قدمًا، فقد كانت أقصر من صاري سفينة چين، وبالكاد أطول بمقدار مرتين من دفة سفينة چين. ولم يكن لدىٰ كولومبوس ناقلاتٌ للمياه العذبة أو أطباء حقيقيون. وكان لدىٰ چين بوصلات مغناطيسية، وكان يعرف عن المحيط الهندي ما يكفي لملء خريطة بطول واحد وعشرين قدمًا؛ أمَّا كولومبوس فنادرًا ما علم أين هو، فضلًا عن إلىٰ أين هو ذاهب.

وربما يجعل هذا الأمر أي شخص يعيد النظر في فرضية أنَّ الهيمنة الغربية كانت حتمية منذ الماضي البعيد، ولكنَّ العديد من الكتب المهمة جادلت بأنَّ چين هو -في النهاية- يتلاءم مع نظريات المدىٰ الطويل الحتمية: فنحن بحاجة فقط إلىٰ نُسخ أكثر تطورًا من چين. علىٰ سبيل المثال: في كتابه الرائع «ثراء الأمم وفقرها» (The Wealth and Poverty of Nations)، يجدد الاقتصادي ديفيد لانديز فكرة أنَّ الاعتلال والديموجرافيا منحا أوروبا تفوقًا مؤكدًا ودائمًا علىٰ الصين، ولكنَّه أضاف تحوُّلًا جديدًا، بالإشارة إلىٰ أنَّ الكثافة السكانية في الصين حبَّذت الحكومة المركزية، وقلَّلت من تحفيز الحكام علىٰ استغلال رحلات چين. وبسبب أنَّه لم يكن لديهم أي منافسين، انشغل الأباطرة الصينيون بكيف يمكن إثراء تجارة الجماعات غير المرغوب فيها مثل التجَّار أكثر من انشغالهم بالحصول علىٰ المزيد من الثروات لأنفسهم؛ ولأنَّ الدولة كانت قوية جدًّا، استطاع الأباطرة أن يستأصلوا هذه الممارسة المزعجة. وفي ثلاثينيات القرن الخامس عشر منعوا الرحلات المحيطية، وفي سبعينيات القرن الخامس عشر دمروا وثائق چين مُنهين بذلك العصر العظيم للاكتشافات الصينية.

ويقدم عالم الأحياء والجغرافي، جاريد دايموند، حالة مماثلة في كتابه «أسلحة وجراثيم وفولاذ»، (Guns, Germs, and Steel)، وهدفه الرئيس هو بيان لماذا طوَّرت المجتمعات الواقعة ضمن خط العرض الذي يمتد من الصين إلىٰ البحر المتوسط الحضارات الأولىٰ، ولكنَّه يشير أيضًا إلىٰ أنَّ أوروبا بدلًا من الصين هيمنت علىٰ العالم الحديث؛ لأنَّ شبه جزر أوروبا جعلت الأمر سهلًا علىٰ الممالك الصغيرة أن تصمد ضد الغزاة، وجاء ذلك في صالح التشظي السياسي، بينما حبَّذ الساحل المستدير للصين الحكام المركزيين بدلًا من الأمراء

الصغار. وقد أتاحت الوحدة السياسية الناتجة عن ذلك لأباطرة الصين في القرن الخامس عشر حظر الرحلات مثل رحلات چين.

أمَّا في أوروبا المتشظية، فعلىٰ النقيض من ذلك، كان بإمكان الملك تلو الآخر رفض عرض كولومبوس المجنون، لكن كولومبس كان يجد -دائمًا- شخصًا آخر ليعرض عليه طلبه. ربما نتفكر في أنَّه إذا كانت لدىٰ چين خيارات كثيرة مثلما كان لدىٰ كولومبوس فلربما التقىٰ إيرنان كورتيه بحاكم صيني في المكسيك عام ١٥١٩م، بدلًا من مونتيزوما الذي قُضي عليه. ولكن -بحسب النظريات الحتمية طويلة المدىٰ- أدت قوىٰ موضوعية وضخمة، مثل: الاعتلال، والديموغرافيا، والجغرافيا - إلىٰ استبعاد هذا الاحتمال.

ولكن مؤخرًا، بدأت رحلات تشنغ بالإضافة إلىٰ الكثير من الحقائق الأخرىٰ في إدهاش البعض بكونها لا تتناسب علىٰ الإطلاق مع نماذج نظريات المدىٰ الطويل. فقد أظهرت اليابان بالفعل في عام ١٩٠٥م أنَّ بإمكان الأمم الشرقية أن تنافس الأوروبيين في ميدان القتال بهزيمتهم للإمبراطورية الروسية. وفي عام ١٩٤٢م كادت اليابان أن تزيل القُوَىٰ الغربية من المحيط الهادئ تمامًا، ثم غيَّرت اليابان توجهها لتصبح عملاقًا اقتصاديًّا، بنهوضها من الهزيمة المدمرة في عام ١٩٤٥م. ومنذ عام ١٩٧٨م، كما نعلم جميعًا، اتخذت الصين مسارًا مشابهًا. وفي عام ٢٠٠٦م، تفوقت الصين علىٰ الولايات المتحدة لتصبح أكبر مصدر لانبعاثات الكربون، وحتىٰ في أحلك أيام الأزمة المالية (٢٠٠٨ - ٢٠٠٩م) ظلَّ اقتصاد الصين ينمو بمعدلات كانت لتحسدها عليها الحكومات الغربية في أفضل الأوقات. وربما نحتاج إلىٰ التخلص من السؤال القديم وطرح سؤالٍ جديد: (هل يهيمن الغرب، أم لا؟)، وليس: لماذا يهيمن الغرب. وإذا كانت الإجابة: «لا»، فإنَّ النظريات الحتمية طويلة المدىٰ، والتي تتلمس التفسيرات القديمة للهيمنة الغربية، التي هي أصلًا غير موجودة فعليًّا، تبدو غير مُجدية.

تتمثل إحدىٰ نتائج هذه الشكوك (حول الهيمنة الفعلية للغرب، م) في أنَّ بعض المؤرخين الغربيين قد طوَّروا نظرية جديدة بالكلية في تفسير السبب الذي من أجله اعتاد الغرب أن يهيمن في السابق بينما توقف الآن عن ذلك. وأسمي

هذه النظرية: «النموذج العرضي قصير المدىٰ». وتميل جدليات النظرية العرضية قصيرة المدىٰ إلىٰ أنْ تكون أكثر تعقيدًا من جدليات النظريات طويلة المدىٰ، وهناك خلافات عنيفة داخل المعسكر المتبني لهذه النظرية، ولكن ثمة شيء واحد يتفقون عليه جميعًا، وهو: أنَّ كل ما يقوله مُتبنُّو النظرية طويلة المدىٰ خطأٌ. فالهيمنة الغربية لم تقتصر علىٰ الغرب منذ الماضي البعيد؛ فقد تقدم الغرب مؤقتًا فحسب بعد عام ١٨٠٠م عشية حرب الأفيون علىٰ الشرق، بل كان الأمر عرضيًّا إلىٰ حدٍّ كبير. لم يكن سيناريو ألبرت في بكين سخيفًا، وكان من الممكن أن يحدث بسهولة.

ارتفاع الحظ وسقوطه

تُعرف أورانچ كونتي بولاية كاليفورنيا بسياستها المحافظة، وأشجارها المقلّمة، وچون واين المقيم هناك منذ زمن طويل (وقد سُمِّي المطار المحلي باسمه، علىٰ الرغم من كرهه لتحليق الطائرات فوق ملعب الجولف). وتُعرف أورانچ كونتي بذلك أكثر من كونها تُعرف بعلومها المتزمتة، ولكن في التسعينيات تحولت أورانچ كونتي إلىٰ بؤرة للنظريات العرضية قصيرة المدىٰ عن التاريخ العالمي. فقد كتب مؤرخان هما بن وونغ وكينيث بوميرانز، وعالم اجتماع (وانغ فنغ) بحرم إيرڤن بجامعة بكاليفورنيا -كُتُبًا مرجعية جادلوا فيها بأنَّه أيًا كان ما نُنَظِّر إليه- الإيكولوچيا أو البنىٰ الأسرية، التكنولوچيا والصناعة أو الاقتصاد والمؤسسات، مستويات المعيشة أو أذواق المستهلكين - فإنَّ أوجه الشبه بين الشرق والغرب قد رجحت بدرجة كبيرة علىٰ الاختلافات بينهما في أواخر القرن التاسع عشر.

وإذا كانوا مُحقِّين؛ فمن الصعب تفسير سبب مجيء لوتي إلىٰ لندن بدلًا من اتجاه ألبرت إلىٰ الشرق. ويجادل بعض أنصار نظريات الحتمية قصيرة المدىٰ، مثل الاقتصادي المستقل أندريه جوندر فرانك، (الذي كتب أكثر من ٣٠ كتابًا عن كل شيء يتراوح من فترة ما قبل التاريخ إلىٰ اقتصاد أمريكا اللاتينية) - بأنَّ الشرق كان في وضع أفضل من الغرب كي يمتلك ثورة صناعية إلىٰ أن تدخلت الحوادث العارضة. واستنتج فرانك أنَّ أوروبا كانت ببساطة «شبه جزيرة هامشية بعيدة» في نظام عالمي مركزه الصين. ونتيجة ليأسهم من الوصول إلىٰ أسواق آسيا حيث توجد الثروة الحقيقية، حاول الأوروبيون قبل آلاف السنين أن يشقوا طريقهم عبر

الشرق الأوسط من خلال الحروب الصليبية، وعندما لم يفلح ذلك، حاول البعض، مثل كولومبوس، الإبحار غربًا للوصول إلىٰ كاثاي (الصين، م).

ولم يفلح ذلك أيضًا؛ لأنَّ أمريكا كانت في الطريق، ولكن في رأي فرانك فقد مثَّل خطأ كولومبس بداية التغيُّر لمكانة أوروبا في النظام العالمي. في القرن السادس عشر كان اقتصاد الصين يزدهر، ولكنَّه واجه نقصًا مستمرًا في الفضة. وكانت أمريكا مليئةً بالفضة؛ ولذا استجاب الأوروبيون لاحتياجات الصين بجعل الهنود الحمر يستخرجون ١٥٠ ألف طن من المعادن النفيسة من الجبال في بيرو والمكسيك. وانتهىٰ مطاف ثُلث تلك المعادن في الصين. وهكذا اشترت كل من الفضة والوحشية والعبودية للغرب «مقعدًا في عربة الدرجة الثالثة في قطار آسيا الاقتصادي»، كما عبَّر فرانك عن هذا الأمر، ولكن كان لا يزال هناك المزيد ممَّا وجب أن يحدث قبل أن يتمكن الغرب من «إزاحة الآسيويين من القاطرة».

لقد اعتقد فرانك أنَّ نهضة الغرب دانت للمبادرة الأوروبية بصورةٍ أقل من مديونتها لتراجع الشرق بعد عام ١٧٥٠م، واعتقد أن تراجع الشرق بدأ عندما بدأت إمدادات الفضة تتقلص، ممَّا أطلق أزمات سياسية في آسيا، ولكنَّه قدَّم حافزًا داعمًا في أوروبا، حيث إنَّهم حين لم يعد لديهم فضة للتصدير، قام الأوروبيون بميكنة صناعاتهم لصناعة سلع أخرىٰ غير الفضة قادرة علىٰ المنافسة في الأسواق الآسيوية. وقد جادل فرانك بأنَّ النمو السكاني بعد عام ١٧٥٠م كانت لديه نتائج مختلفة في كل طرف من أوروبا الآسيوية، حيث استقطاب الثروة، وتغذية الأزمات السياسية وتثبيط الابتكار في الصين، وفي المقابل توفير العمالة الرخيصة للمصانع الجديدة في بريطانيا. وبينما كان الشرق يتداعىٰ، حدثت في الغرب الثورة الصناعية التي كانت يجب أن تحدث في الصين؛ ولكن لأنَّها حدثت في بريطانيا ورث الغرب العالم.

وبالرغم من ذلك، يُخالف آخرون من مُتبنِّي نظريات المدىٰ القصير ذلك الطرح. يجادل عالم الاجتماع چاك غولدستون (الذي قام بالتدريس لعدة سنوات في حرم دافيز بجامعة كاليفورنيا واستحدث مصطلح «مدرسة كاليفورنيا» لوصف مُنظِّري نظريات المدىٰ القصير) بأنَّ مكانة الشرق والغرب كانت متساوية علىٰ نحوٍ

جيد أو سيئ حتىٰ عام ١٦٠٠م تقريبًا، حيث حكمت كل منهما إمبراطوريات زراعية عظمىٰ مع كهنوت مُحكم يحرس التقاليد القديمة. وفي كل مكان من إنجلترا إلىٰ الصين، جلبت الأوبئة والحروب والإطاحة بالأسر الحاكمة هذه المجتمعات إلىٰ حافة الانهيار في القرن السابع عشر، ولكن في حين تعافت معظم الإمبراطوريات وأعادت بصرامة فرض الفكر التقليدي، رفض بروتستانت شمال غرب أوروبا التقاليد الكاثوليكية.

ويشير غولدستون إلىٰ أنَّ فعل التحدي هذا هو الذي أرسل الغرب في مسار نحو الثورة الصناعية. وبتحررهم من أغلال الأيديولوجيات العتيقة، أماط العلماء الأوروبيون اللثام عن أعمال الطبيعة بفعالية جعلت رواد الأعمال البريطانيين، بمشاركتهم في هذه الحضارة البراجماتية، يتعلمون تسخير الفحم والبخار للعمل، وبحلول عام ١٨٠٠م تقدم الغرب بشكل حاسم علىٰ البقية.

لم يكن أي من ذلك حتميًا، كما يجادل غولدستون، وفي الحقيقة ربما استطاعت بضع حوادث أن تُغير العالم تمامًا. فعلىٰ سبيل المثال، في معركة بويون في عام ١٦٩٠م مزَّقت رصاصة كاثوليكية من بندقية «المسكيت» كتف المعطف الذي كان يرتديه وليام الثالث -من عائلة أوراني- البروتستانتي الطامح في عرش إنجلترا. ويقول غولدستون إنَّه كان من المفترض أن يقول ويليام: «من الجيد أنَّ الرصاصة لم تأتِ أقرب من ذلك»؛ متأملًا في أنَّ الطلقة لو أصابت موضعًا إلىٰ الأسفل من الموضع الذي أصابته بمقدار بضع بوصات لبقيت إنجلترا كاثوليكية، ولهيمنت فرنسا علىٰ أوروبا، ولمَا قامت الثورة الصناعية.

ويذهب كينيث بوميرانز من مدينة إيرفن إلىٰ أبعد من ذلك؛ إذ يرىٰ أنَّ وجود ثورة صناعية كانت ضربة حظٍّ كبيرة. ويجادل بأنَّه في عام ١٧٥٠م تقريبًا، كان كلٌّ من الشرق والغرب متجهين نحو كارثةٍ بيئية، وكان معدل نمو السكان أسرع من معدل نمو التكنولوجيا، وبذل الناس كل ما في وسعهم في سبيل توسيع الزراعة وتكثيفها، ونقل البضائع، وإعادة تنظيم أنفسهم. وكانوا علىٰ وشك أن يبلغوا حدود الممكن بتكنولوجيتهم، وكان هناك من الأسباب ما يحمل علىٰ توقع

حدوث كساد عالمي وانخفاض في عدد السكان في القرنين التاسع عشر والعشرين.

ومع ذلك، شهدت آخر مائتي سنة نموًّا اقتصاديًّا يفوق كل التاريخ المنصرم بأكمله. والسبب، كما يشرح بوميرانز في كتابه المهمّ «**التباعد الكبير**»، (The Great Divergence)، هو أنَّ أوروبا الغربية -وقبل كل شيء بريطانيا- قد حالفها الحظ فحسب. ويرىٰ بوميرانز -مثل فرانك- أنَّ حظ الغرب قد بدأ بالاكتشاف العرضي للأمريكتين، الذي أدىٰ لإنشاء نظام تجاري أعطىٰ الدوافع لمصنعة الإنتاج. ولكن علىٰ عكس فرانك، يشير بوميرانز إلىٰ أنَّه حتىٰ وقت متأخر، في عام ١٨٠٠م تقريبًا، كان ما زال ممكنًا لحظ أوروبا أن يفشل. ويشير بوميرانز إلىٰ أنَّ الأمر كان سيتطلب مساحةً كبيرة لزراعة ما يكفي من الأشجار لتغذية المحركات البخارية البدائية المبكرة لبريطانيا بالخشب، مساحة أكبر في الواقع ممَّا كان لدىٰ أوروبا الغربية المزدحمة. ولكن هنا تدخلت ضربة الحظ الثانية عندما تمكنت بريطانيا، وحدها في العالم، من إيجاد حقول الفحم الحجري وميكنة الصناعات سريعًا. وبحلول عام ١٨٤٠م، كان البريطانيون يستخدمون الأجهزة المُدارة بالفحم في كل مناحي حياتهم، بما في ذلك السفن الحديدية التي استطاعت أن تشق طريقها في نهر يانغتسي. كانت بريطانيا تحتاج إلىٰ حرق ١٥ مليون فدان آخر من الغابات سنويًّا -وهي مساحة لم تتواجد فعليًّا- لإنتاج قدرٍ مساوٍ من الطاقة الناتجة من الفحم الآن. لقد بدأت ثورة الوقود الأحفوري، وتم تفادي الكارثة الإيكولوجية (أو علىٰ الأقل تأجيلها إلىٰ القرن الحادي والعشرين)، وساد الغرب العالم فجأة رغم كل الصعاب. لم تكن هناك حتمية طويلة المدىٰ، كان الأمر كله مجرد حادث غريب مستجد.

إنَّ تنوع تفسيرات نظريات المدىٰ القصير للثورة الصناعية الغربية، علىٰ امتدادها من مصادفة بوميرانز التي أدت إلىٰ تجنب كارثةٍ عالمية، وانتهاءً بانتقال فرانك المؤقت إلىٰ داخل اقتصاد عالمي مُتوسِّعٍ - تشبه تمامًا في اتساعها الفجوة ما بين جارِد دايموند -مثلًا- وكارل ماركس حول الجانب طويل المدىٰ. وبالرغم من كل ذلك الجدل داخل المدرستين، فإنَّ مسارات النزاع بينهما هي التي تنتج

أكثر النظريات المتضاربة بقوة حول كيف يسير العالم. ويدَّعي بعض متبني نظريات المدىٰ الطويل أنَّ المُحرِّفين فقط هم من ينشرون علمًا زائفًا رديئًا، يصح سياسيًّا، لكنَّه كاذب. ويرد بعض متبني نظريات المدىٰ القصير أنَّ أنصار نظريات المدىٰ الطويل هم اعتذاريون موالون للغرب أو حتىٰ عنصريون.

وتدل حقيقة أنَّ العديد من الخبراء استطاعوا التوصل إلىٰ مثل هذه الاستنتاجات المختلفة بشدة علىٰ أنَّ هناك خطأ في الطريقة التي عالجنا بها المشكلة. وفي هذا الكتاب سأجادل بأنَّ كلًّا من أنصار نظريات المدىٰ الطويل والمدىٰ القصير علىٰ السواء أساؤوا فهم نمط التاريخ؛ ولذلك توصَّلوا إلىٰ نتائج جزئية ومتضاربة. وأعتقد أنَّ ما نحتاجه هو وجود منظور مختلف.

شكل التاريخ

ما أعنيه بهذا هو أنَّ كلًّا من أنصار نظريات المدىٰ الطويل والمدىٰ القصير يتفقون علىٰ أنَّ الغرب قد ساد العالم منذ مائتي عام، ولكنَّهم يختلفون حول كيف كان العالم قبل ذلك. وكل شيء يدور حول تقييماتهم المختلفة بشأن تاريخ ما قبل الحداثة. والطريقة الوحيدة التي نستطيع بها حل النزاع هي بالنظر في هذه الفترات السابقة لإنشاء نمط كليّ للتاريخ. وعندئذٍ فقط، مع تثبيت الأساس، يُمكننا أن نتجادل علىٰ نحوٍ فعَّال عن السبب الذي من أجله آلت الأشياء إلىٰ ما آلت إليه.

ولكن هذا هو الشيء الوحيد الذي لا يبدو أنَّ أي شخص في الغالب يُريد القيام به. فمعظم الخبراء الذين يكتبون عن سبب هيمنة الغرب لديهم خلفيات في الاقتصاد وعلم الاجتماع والسياسة، أو التاريخ الحديث، فهم بالأساس من المتخصصين في الأحداث الراهنة أو المستجدة. ويميلون إلىٰ التركيز علىٰ الأجيال القليلة الماضية، حيث ينظرون إلىٰ الوراء، قبل خمسمائة عام علىٰ أكثر تقدير، ويتعاملون مع التاريخ السابق علىٰ تلك الأعوام بإيجاز شديد، إذا فعلوا بالأساس - علىٰ الرغم من أنَّ محل النزاع الرئيس هو هل كانت العوامل التي منحت الغرب الهيمنة موجودة أصلًا في وقت سابق، أم ظهرت فجأة في العصر الحديث.

ويتناول مجموعة من المفكرين المسألة بشكلٍ مختلف تمامًا؛ إذ يركزون علىٰ فترة ما قبل التاريخ البعيدة، ثم يقفزون إلىٰ الأمام إلىٰ العصر الحديث، متحدثين قليلًا عن آلاف السنين التي ما بين الفترتين. ويُشير الجغرافي والمؤرخ

ألفريد كروسبي صراحةً إلىٰ ما يعدُّه كثيرٌ من هؤلاء الباحثين من المُسلَّمات؛ وهو أن ابتكار الزراعة في عصور ما قبل التاريخ كان أمرًا بالغ الأهمية، ولكن «بين تلك الحقبة وحقبة تطور المجتمعات التي أرسلت كولومبوس وغيره من الرحَّالة عبر المحيطات، مرَّ حوالي ٤٠٠٠ عام، حصلت فيها أمور قليلة الأهمية بالنسبة إلىٰ ما حدث قبل ذلك».

وهذا يُعد خطأً، كما أعتقد، فنحن لن نجد إجابات إذا قيَّدنا بحثنا بفترة ما قبل التاريخ، أو الأزمنة الحديثة، (وأتسرع بإضافة أنَّنا لن نجد إجابات أيضًا إذا اقتصرنا فقط علىٰ الأربعة أو الخمسة آلاف سنة ما بينهما). إنَّ تلك المسألة تقتضي منا النظر إلىٰ النطاق الكُلِّي للتاريخ البشري، باعتباره قصة واحدة، تصوغ نمط التاريخ الكلي، قبل مناقشة أسباب امتلاك التاريخ لهذا النمط. وهذا ما أحاول فعله في هذا الكتاب، مستصحبًا مجموعة مختلفة من المهارات.

لقد تلقيت تعليمي بوصفي عالمًا ومؤرخًا للعصور القديمة، متخصصًا في منطقة البحر المتوسط القديمة في أثناء الألفية الأولىٰ قبل الميلاد. وعندما التحقتُ بالكلية في جامعة برمنغهام في إنجلترا في عام ١٩٧٨م، بدا معظم العلماء الكلاسيكيين الذين التقيتهم مطمئنين جدًّا للنظرية طويلة المدىٰ القائلة بأنَّ حضارة الإغريق القدامىٰ، التي أُنشئت قبل ألفي وخمسمائة عام، هي التي صاغت أسلوبًا غربيًا مميزًا للحياة. وبعضهم (معظمهم من كبار السن) يقولون صراحة: إنَّ هذا التقليد اليوناني هو الذي جعل الغرب أفضل من البقية.

وبقدر ما أتذكر، لم يستوقفني شيء من ذلك باعتباره مشكلة، إلىٰ أن بدأْتُ كتابة أبحاث الدراسات العُليا في جامعة كامبريدج في أوائل الثمانينيات، حول نشأة المدن الإغريقية. وقد أخذني ذلك ضمن علماء الآثار الأنتروبولوجيين الذين يشتغلون بعمليات مماثلة في مناطق أخرىٰ من العالم. وقد سخروا صراحة من الفكرة الطريفة القائلة بأن الثقافة اليونانية كانت فريدة من نوعها، وأنَّها هي التي أسست تقليدًا غربيًا مميزًا وديمقراطيًّا ومنطقيًّا. وكما يفعل الناس -غالبًا- فلقد تمكنْتُ لعدة سنواتٍ من حمل فكرتين متناقضتين في رأسي، فمن جهة: كان تطور

المجتمع اليوناني علىٰ غرار تطور المجتمعات القديمة الأخرىٰ؛ ومن جهة أخرىٰ: فإنَّ ذلك التطور للمجتمع اليوناني هو الذي استهل مسارًا غربيًا مميزًا.

وغدا تحقيق التوازن أكثر صعوبةً حين حصلت علىٰ أول منصبٍ لي في الكلية، في جامعة شيكاغو عام ١٩٨٧م. وهناك قمت بالتدريس في برنامج شيكاغو الشهير عن تاريخ الحضارة الغربية، الممتد من أثينا القديمة وحتىٰ سقوط الشيوعية (أخيرًا). وللبقاء متقدمًا عن طلابي ولو بيوم واحد كان عليَّ أن أقرأ التاريخ الأوروبي في العصور الوسطىٰ والحديثة بشكلٍ أكثر جدية ممَّا سبق، ولم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظة أنَّه لفترةٍ طويلة من الزمن كان يتم تجاهل قيم الحرية والعقلانية والابتكار أكثر من اتباعها، وهي القيم التي من المفترض أنَّ اليونان قد أورثتها للغرب. ولمحاولة فهم هذا؛ وجدت نفسي أنظر في شرائح أكثر اتساعًا من الماضي البشري. وفوجئت بمدىٰ قوة أوجه التشابه بين ما يفترض أنَّها التجربة الغربية الفريدة، وتاريخ أجزاء أخرىٰ من العالم، وخاصة الحضارات الكبرىٰ في الصين والهند وإيران.

عادة ما يشكو الأساتذة من أعبائهم الإدارية، ولكنني عندما انتقلت إلىٰ جامعة ستانفورد في عام ١٩٩٥م تعلمتُ سريعًا أنَّ المشاركة في الجمعيات قد تكون طريقة ممتازة لمعرفة ما يدور خارج مجالي الصغير. ومنذ ذلك الحين، توليتُ إدارة مؤسسة العلوم الاجتماعية والتاريخ بالجامعة ومركز علم الآثار، وتوليتُ رئاسة قسم الكلاسيكيات، ومنصب العميد المساعد الأكبر لكلية الإنسانيات والعلوم، كما توليتُ إدارة حملة تنقيب أثرية كبيرة، وكان كل ذلك يعني كثيرًا من الأعمال الورقية والصداع، لكنَّه سمح لي أيضًا بالتعرف إلىٰ متخصصين في كل مجال، من علم الجينات إلىٰ النقد الأدبي، قد يكون مرتبطًا بالتوصل لسبب هيمنة الغرب.

وقد تعلمت شيئًا مهمًا، وهو: أنَّه للإجابة عن هذا السؤال نحتاج إلىٰ نهجٍ منفتحٍ يجمع بين تركيز المؤرخين علىٰ السياق ووعي علماء الآثار بالماضي البعيد وطُرق المقارنة الخاصة بعلماء الاجتماع. ويمكننا الحصول علىٰ هذا المزيج بجمع فريق متعدد التخصصات مُؤلَّف من اختصاصيين، ممَّا سيجمع خبرة عميقة

عبر طائفة من المجالات، وهذا هو في الواقع ما فعلته عندما بدأْتُ في إدراة حملة تنقيب عن الآثار في صقلية. ولم أكن أعرف ما يكفي عن علم النبات لتحليل البذور المتفحمة التي عثرنا عليها، أو عن علم الحيوان لتمييز عظام الحيوانات، أو عن الكيمياء لفهم طبيعة المخلفات في أوعية التخزين، أو عن الجيولوجيا لإعادة بناء عمليات تكوين السطح، أو عن مجموعة من التخصصات الأخرىٰ التي لا غنىٰ عنها؛ لذلك بحثتُ عن متخصصين علىٰ معرفة ودراية. إنَّ مدير عملية تنقيب عن الآثار هو نوع من متعهد حفلات أكاديمي، الذي يجمع الفنانين الموهوبين الذين سيقدمون العرض.

وتُعدّ هذه الطريقة (طريقة جمع المختصين، م) طريقة جيِّدة لإصدار تقريرٍ بأعمال التنقيب، حيث يتمثل الهدف في مُراكمة البيانات للآخرين كي يستخدموها، ولكن كتب اللجان تميل لأن تكون أقل جودة في تطويرها لحلولٍ موحدة للأسئلة الكبيرة. ونتيجة لذلك -في الكتاب الذي تقرؤه الآن- فإنَّني أتخذ نهجًا متداخل التخصصات بدلًا من كونه متعدد التخصصات، فبدلًا من دعم حشدٍ من المتخصصين؛ فإنَّني أعتمد علىٰ تخصصاتي لتجميع نتائج الخبراء في ميادين عديدة وتفسيرها.

وهذه الطريقة تتعرض لجميع أنواع المخاطر (السطحية، التحيّز التخصصي، والخطأ العام). فلن أمتلك أبدًا الإدراك المُحكم نفسه للثقافة الصينية لشخص أنفق حياته في قراءة المخطوطات التي تعود إلىٰ القرون الوسطىٰ، ولن أكون مطلعًا علىٰ مستجدات النشوء البشري مثل عالم وراثة (وقد بلغني أنَّ مجلة «ساينس» تقوم بتحديث موقعها في المتوسط كل ١٣ ثانية؛ ومن المحتمل أنَّني -في أثناء كتابة هذه الجملة- تخلَّفت عن مواكبة تحديثاتها مجددًا). ولكن من ناحية أخرىٰ: لن يرىٰ أولئك الذين يبقون داخل حدود تخصصاتهم الصورة الكبيرة. إنَّ النموذجَ متداخل التخصصات ذا المؤلف الواحد هو أسوأ طريقة علىٰ الأرجح لكتابة مثل هذا الكتاب - باستثناء كل الطرق الأخرىٰ. ويبدو لي ذلك النموذج أنَّه بالتأكيد أقل النماذج سُوءًا للمُضيِّ قُدُمًا، ولكن سينبغي عليك أن تحكم من النتائج ما إذا كنتُ مُحقًّا.

فما هي النتائج إذن؟ إنَّني أجادل في هذا الكتاب بأنَّ سؤال لماذا يُهيمن الغرب هو حقًّا سؤال حول ما سأسمِّيه التطور الاجتماعي. وبهذا أنا أعني بالأساس قدرات المجتمعات علىٰ إنجاز الأشياء، أو صياغة بيئاتهم المادية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لأغراضهم الخاصة. وبالعودة إلىٰ القرنين التاسع عشر والعشرين، سلَّم المراقبون الغربيون بأنَّ التطور الاجتماعي أمرٌ جيدٌ بلا جدال. فالتطور يُعدُّ تقدُّمًا (أو نشوءًا أو تاريخًا)، كما ذكروا كثيرًا صراحةً وضمنًا، وهذا التقدم -سواء كان لوجه الله، أو من أجل الثراء أو من أجل الفردوس البشري- فهو هدف الحياة. ولكن في هذه الأيام يبدو ذلك المعنىٰ أقل وضوحًا. فالكثير من الناس يشعرون أنَّ التدهور البيئي والحروب وعدم المساواة وخيبة الأمل الناتجة عن التطور الاجتماعي تفوق كثيرًا أية فوائد يُولِّدها.

ولكن أيًّا كانت التهمة الأخلاقية التي نعلِّقها علىٰ التطور الاجتماعي، فإنَّ واقعيته أمرٌ لا يمكن إنكاره. فكل المجتمعات اليوم تقريبًا أكثر تطورًا (بالمعنىٰ الذي عرَّفْتُ به هذه الكلمة في الفقرة السابقة) ممَّا كانت عليه قبل مائة عام، وبعض المجتمعات اليوم أكثر تطورًا من غيرها. في عام ١٨٤٢م، كانت الحقيقة القاسية هي أنَّ بريطانيا أكثر تطورًا من الصين، وفي الواقع كانت متطورة جدًّا لدرجة أنَّ امتدادها قد أصبح عالميًّا. لقد كانت هناك الكثير من الإمبراطوريات في الماضي، ولكن امتدادها كان دومًا إقليميًّا. وبحلول عام ١٨٤٢م استطاع المُصنِّعون البريطانيون إغراق الصين بمنتجاتهم، واستطاع أصحاب المصانع البريطانيون بناء السفن الحديدية التي فاقت في التسليح كل مثيلاتها في العالم، واستطاع الساسة البريطانيون إرسال حملة إلىٰ النصف الآخر من العالم.

إنَّ التساؤل عن سبب هيمنة الغرب يعني حقيقةً أن نطرح سؤالين، إنَّنا بحاجة إلىٰ معرفة كلٍّ من: لماذا الغرب أكثر تطورًا -أي: أكثر قدرة علىٰ إنجاز الأمور- من أي منطقة أخرىٰ في العالم؟ والأمر الآخر: لماذا تصاعد تطور الغرب هكذا في المائتي سنة الأخيرة، لدرجة أن استطاعت دول قليلة لأول مرة في التاريخ أن تسيطر علىٰ الكوكب بأسره؟

والطريقة الوحيدة للإجابة عن هذه الأسئلة -كما أعتقد- هي من خلال قياس التطور الاجتماعي لإنتاج رسم بياني يُوضِّح -حرفيًا- نمط التاريخ. وبمجرد أن نفعل ذلك؛ فإنَّنا سنرىٰ أنَّ كلًّا من النظريات طويلة المدىٰ الحتمية والأخرىٰ قصيرة المدىٰ العرضية، لا تفسر نمط التاريخ بشكل جيِّد علىٰ الإطلاق. فالجواب عن السؤال الأول (لماذا التطور الاجتماعي الغربي أعلىٰ من أي جزء آخر من العالم؟) لا يكمن في أي حادث عرَضي وقع مؤخرًا، فالغرب كان المنطقة الأكثر تطورًا في العالم لأربعة عشر من الخمسة عشر ألف سنة الماضية. ولكن من ناحية أخرىٰ: لم تكن ريادة الغرب محتومة في الماضي البعيد؛ فلأكثر من ألف سنة، بدءًا من حوالي عام ٥٥٠م إلىٰ عام ١٧٧٥م، أحرزت المناطق الشرقية نتائج أعلىٰ. وهكذا لم تكن الهيمنة الغربية مُقررةً سلفًا منذ آلاف السنين الماضية، ولا كانت نتيجة لحوادث عرَضية متأخرة.

ولا يمكن أيضًا للنظريات طويلة المدىٰ أو قصيرة المدىٰ الإجابة عن السؤال الثاني، المتعلق بسبب تصاعد وتيرة التطور الاجتماعي الغربي مقارنةً بكل المجتمعات القديمة. وكما سنرىٰ، فقد بدأت إنجازات الغرب في الارتفاع فقط في عام ١٨٠٠م تقريبًا بمعدلات مذهلة، لكن تلك الطفرة كانت هي نفسها المثال الأخير علىٰ نمط طويل المدىٰ جدًّا للتطور الاجتماعي المتسارع باطراد. وهكذا، فإنَّ المدىٰ الطويل والقصير يعملان معًا.

وهذا هو السبب في أنَّنا لا نستطيع تفسير هيمنة الغرب بمجرد النظر في فترة ما قبل التاريخ أو بمجرد النظر في بضع مئات السنوات الأخيرة. وللإجابة عن السؤال علينا إدراك النطاق الكُلِّي للماضي. وبالرغم من أنَّ التمثيل البياني لصعود التطور الاجتماعي وهبوطه يكشف عن نمط التاريخ، ويظهر لنا ما يحتاج إلىٰ شرح؛ فإنَّه لا يشرح الأمر فعليًّا. ومن أجل ذلك، نحتاج إلىٰ أن نُنَقِّب في التفاصيل.

الكسل والخوف والطمع

التاريخ: هو سرد، معظمه غير صحيح، لأحداث، هي في الغالب غير مهمة، وتسبَّب فيها كل من الحكام الذين هم في الغالب أوغاد، والجنود الذين هم في الغالب مغفلون. من الصعب أحيانًا ألَّا تتفق مع تعريف أمبروز بيرس الكوميدي: فالتاريخ يمكن أن يبدو مجرد شيء لعين يحدث بعد شيء لعين آخر، أو خليط فوضوي من العباقرة والأغبياء، الطغاة والرومانتيكيين، الشعراء واللصوص، الذين ينجزون أشياء غير عادية أو لا يجدون خيارًا سوىٰ الرذيلة.

ومثل هؤلاء الناس يُزيِّنون الصفحات التالية، وهو ما يجب أن يكون عليه الأمر. ففي النهاية: هم أفراد من لحمٍ ودم، وليسوا قوىٰ موضوعية شاسعة، يعيشون ويموتون ويُنشئون ويتقاتلون في هذا العالم. ولكن من وراء كل الضجيج والغضب، سوف أجادل بأنَّ الماضي رغم ذلك لديه أنماط قوية، وأنَّه باستخدام الأدوات المناسبة؛ فبإمكان المؤرخين أن يستشفُّوا ماهية تلك الأنماط، بل وأن يفسروها.

*** وسأستخدم الأدوات الثلاث التالية:**

- **الأولىٰ**: هي البيولوجيا، التي تخبرنا ما هي حقيقة البشر، وهي أنَّنا: حيوانات شمبانزي ماهرة. فنحن جزء من المملكة الحيوانية، التي هي في حد ذاتها جزء من إمبراطورية الحياة الأكبر، والتي تمتد من القردة العُليا نزولًا للأميبا. ولهذه الحقيقة الواضحة جدًّا ثلاث نتائج مهمة:

أولًا: شأننا شأن جميع أشكال الحياة، فنحن نحيا؛ لأنَّنا نستخرج الطاقة من بيئتنا ونُحوِّلها إلىٰ المزيد من أنفسنا.

وثانيًا: شأننا في ذلك شأن أكثر الحيوانات ذكاءً، فنحن كائنات فضولية. نحن نتلاعب بالأشياء باستمرار، ونتساءل عمَّا إذا كانت تلك الأشياء تُؤكل، وما إذا كان بوسعنا أن نمرح بها، أو أن نقوم بتطويرها. ونحن أفضل بكثير في التلاعب بالأشياء من الحيوانات الأخرىٰ؛ لأنَّ لدينا أدمغةً كبيرة وسريعة مع الكثير من الطَّيَّات لنفكر في الأشياء، وأحبالًا صوتية مرنة طوال الوقت للتحدث عن الأشياء، وإبهامَيْن عكسيين للتعامل مع الأشياء.

ورغم ذلك، فالبشر -مثل الحيوانات الأخرىٰ- ليسوا كلهم سواءً بوضوح، فبعضهم يستخرج طاقة من البيئة أكثر من الآخرين، وبعضهم أكثر إنتاجية من الآخرين، والبعض أكثر فضولية وإبداعًا ومهارة أو عمليّة من الآخرين.

وأما النتيجة الثالثة لسماتنا الحيوانية: فهي أنَّ المجموعات الكبيرة من البشر، علىٰ عكس الأفراد، تتشابه كثيرًا. فإذا التقطت شخصين عشوائيين من حشد ما، فمن الممكن أن يكونا مختلفَيْن إلىٰ أقصىٰ حدٍّ يُمكن تصوُّره، ولكنَّك إذا جمعت حشدين كاملين، فسيميلان لمطابقة بعضهما البعض إلىٰ حدٍّ بعيد. وإذا قمت بمقارنة المجموعات المليونية، كما أفعل في هذا الكتاب، فمن المحتمل أنَّها ستمتلك نسبًا متشابهة جدًّا من الناس النشطاء والمُنتجين والفضوليين والمبدعين والمهرة والثرثارين والعمليين.

هذه الملاحظات الثلاث المنطقية تشرح الكثير عن مسار التاريخ. لقد ظلَّ التطور الاجتماعي عبر آلاف السنين يزداد بصورة عامة، بفضل تلاعبنا، وقد حدثت تلك الزيادة بمعدل متسارع. فالأفكار الجيدة تولد المزيد من الأفكار الجيدة، وكوننا امتلكنا أفكارًا جيدة في الماضي؛ فإنَّنا نميل إلىٰ عدم نسيانها. ولكن كما سنرىٰ، فإنَّ علم الأحياء لا يشرح التاريخ الكُلِّي للتطور الاجتماعي. لقد كسدَ أحيانًا التطور الاجتماعي لفترات طويلة دون زيادة علىٰ الإطلاق، بل انعكس هبوطًا في بعض الأحيان؛ ولهذا فإنَّ معرفة أنَّنا حيوانات شمبانزي بارعة ليست كافية.

وهنا تأتي الأداة الثانية: علم الاجتماع. يخبرنا علم الاجتماع ما الذي يُسبب التغير الاجتماعي، وما الذي يُسبِّبه التغير الاجتماعي، في وقت واحد.

فجلوس حيوانات الشمبانزي الماهرة وهي تتلاعب هو أمر ما، ولكنَّ انتشار أفكارهم وتغييرها للمجتمع هو أمر مختلف تمامًا. وهو علىٰ ما يبدو أمر يتطلب نوعًا من التحفيز، وقد أشار كاتب الخيال العلمي روبرت هينلين مرة إلىٰ أنَّ «التقدم يُحرزه رجال كسالىٰ يبحثون عن طرق أسهل لإنجاز الأشياء». وسنرىٰ لاحقًا في هذا الكتاب أنَّ نظرية هينلين صحيحة جزئيًّا فقط؛ لأنَّ النساء الكسولات هن بنفس أهمية الرجال الكُسالىٰ، فالكسل ليس وحده أبا الاختراع، وأيضًا لأنَّ كلمة التقدم في كثير من الأحيان هي كلمة متفائلة إلىٰ حدٍّ ما بالنسبة إلىٰ ما يحدث فعلًا. ولكنَّنا إذا أوضحنا قليلًا؛ فإنَّني أعتقد أنَّ حكمة هينلين تُصبح جيدة بصفتها جملة واحدة موجزة عن أسباب التغير الاجتماعي يمكن أن نحصل عليها علىٰ الأرجح. وفي الحقيقة، كما يمضي الكتاب، سأبدأ باقتباس رؤية أقل بلاغية لكلمة هينلين باعتبارها نظرية موريس الخاصة بي، وهي: «إنَّ التغيير يُسببه أناس كُسالىٰ وجشعون وخائفون يبحثون عن طرق أسهل وأكثر ربحًا، وأكثر أمانًا لإنجاز الأشياء. وهم نادرًا ما يدركون ما يفعلون». إنَّ التاريخ يُعلِّمنا أنَّه عندما يعمل الضغط، يحدث التغيير.

يبحث الأشخاص الجشعون والكُسالىٰ والخائفون عن التوازن المُفضَّل لديهم في أن يكونوا مرتاحين، وأن يعملوا بأقل قدر ممكن، وأن يكونوا آمنين. ولكن تلك ليست نهاية القصة؛ لأنَّ نجاح الناس في زيادة أعدادهم واستخلاص الطاقة بشكل حتمي يضع ضغطًا علىٰ الموارد (الفكرية والاجتماعية فضلًا عن المادية) المتاحة لهم. فالتطور الاجتماعي المتزايد يُولِّد القوىٰ نفسها التي تقوِّض المزيد منه. وأسمي هذا الأمر بمفارقة التطور. فالنجاح يخلق مشاكل جديدة؛ وحلها يخلق مشاكل جديدة مع ذلك. إنَّ الحياة -كما يقولون- هي وادٍ من الدموع.

وتعمل مفارقة التطور باستمرار، وتواجه الناس بخياراتٍ صعبة. وغالبًا ما يفشل الناس في الارتقاء إلىٰ مستوىٰ تحدياتها، ومن ثَمَّ يركد التطور الاجتماعي أو يتدهور. ولكن في أوقات أخرىٰ، يتحد الكسل والخوف والجشع لدفع بعض الأفراد للمخاطرة والابتكار لتغيير قواعد اللعبة. وإذا حالف النجاح قلة من هؤلاء

وتبنىٰ الناس ابتكاراتهم الناجحة، فربما يندفع المجتمع من عنق زجاجة الموارد، ومن ثَمَّ يواصل التطور الاجتماعي الازدياد.

يواجه الناس هذه المشاكل ويحلونها كل يوم، وهذا هو السبب في استمرار تصاعد التطور الاجتماعي منذ نهاية العصر الجليدي الأخير. ولكن كما سنرىٰ، في بعض المراحل تخلق مفارقة التطور سُقُفًا صلبة تؤدي فقط إلىٰ تغييرات تحويلية حقًّا. ويلتصق التطور الاجتماعي بهذه السُقُف، ممَّا يبدأ سباقًا يائسًا. وفي الحالة تلو الأخرىٰ سوف نرىٰ أنَّ المجتمعات التي تفشل في حل المشاكل التي تواجهها؛ فإنَّ مجموعة رهيبة من العلل -المجاعات والأوبئة والهجرة غير المُقيَّدة وإخفاق الدولة- تبدأ في إصابتهم وتُحوِّل الركود إلىٰ تدهور؛ وعندما تجتمع المجاعات والأوبئة والهجرة وإخفاق الدولة مع قوىٰ معيقة أخرىٰ، مثل التغير المناخي (إجمالًا، أسمِّي هؤلاء: فرسان الهلاك الخمسة)، فيمكن أن يتحول التدهور إلىٰ انهيارات كارثية وعصور مظلمة لقرون.

وبين (صعود التطور الاجتماعي وهبوطه، م)، يفسر كل من علم الأحياء وعلم الاجتماع معظم أنماط التاريخ - لماذا ازداد التطور الاجتماعي عمومًا، ولماذا يزداد بشكل أسرع في بعض الأحيان وبشكل بطيء في أحيان أخرىٰ، ولماذا يتدهور أحيانًا. لكن هذه القوانين البيولوجية والاجتماعية ثابتة، تنطبق علىٰ كل الأمكنة وفي جميع الأوقات. فهي بالتحديد تخبرنا عن البشرية جمعاء، وليس عن لماذا أبلىٰ البشر في مكان ما بشكل مختلف جدًّا عن البشر في مكان آخر. ولتوضيح ذلك، سأجادل طوال هذا الكتاب أنَّنا بحاجة إلىٰ أداة ثالثة وهي: الجغرافيا.

الموقع، الموقع، الموقع

علَّق الكاتب الساخر إدموند بنتلي في عام ١٩٠٥م قائلًا: «فن التراجم يختلف عن الجغرافيا؛ فالتراجم تتحدث عن الرجال (chaps)، والجغرافيا تتحدث عن الخرائط (maps)». لسنوات عديدة، استحوذ الرجال -بالمعنىٰ البريطاني لرجال الطبقة العليا- علىٰ قصص المؤرخين، إلىٰ حدّ أنّه كان من الصعب تمييز التاريخ عن التراجم/السير الذاتية. وقد تغيَّر ذلك في القرن العشرين، حين أدخل المؤرخون النساء ورجال الطبقة الدنيا والأطفال أيضًا إلىٰ طبقة الرجال الشرفاء، مضيفين أصواتهم للخليط، ولكن في هذا الكتاب أريد أن أذهب لما هو أبعد من ذلك. فما إنْ ندرك أنَّ الرجال (بأعداد كبيرة وبالمعنىٰ الأحدث والأوسع لكلمة الرجال (chaps)، حيث تشمل الكلمة أيضًا المسنين والشباب، م) يتشابهون كثيرًا، سأجادل بأنَّ كل ما يهم هو الخرائط.

ينفعل مؤرخون عديدون تجاه هذا الادعاء انفعال ثور تجاه قماش أحمر. وقد أخبرني العديد بأن رفض الفكرة القديمة القائلة بأنَّ رجالًا عظماء قليلين هم الذين حددوا أنَّ التاريخ سوف يؤول بشكل مختلف في الشرق والغرب هو شيء؛ وأنَّ القول بأنَّ الثقافة والقيم والمعتقدات لم تكن مهمة، وأنَّه يجب البحث عن سبب هيمنة الغرب بشكل كليٍّ في القوىٰ المادية الوحشية، هو شيء آخر تمامًا؛ إلَّا أنَّني إلىٰ حدٍّ ما أعتزم القيام بهذين الشيئين.

وسأحاول أن أُظهر أنَّ الشرق والغرب قد مرَّا بمراحل التطور الاجتماعي نفسها في الخمسة عشر ألف سنة الأخيرة، بالترتيب نفسه؛ لأنَّ أنواع البشر نفسها سكنت في كل منهما، أولئك البشر الذين ينتجون أنواع التاريخ نفسها. ولكنَّني

سأحاول أيضًا أن أُظهر أنَّهما (أي الشرق والغرب، م) لم يقوما بذلك في الأزمنة نفسها أو بالسرعة نفسها. وسوف أخلُص إلىٰ أنَّ علم الأحياء وعلم الاجتماع يفسران أوجه التشابه العالمية بينما يفسر علم الجغرافيا الاختلافات الإقليمية. ومن هذا المنطلق، فإنَّ الجغرافيا هي التي تفسر لماذا يُهيمن الغرب.

ويبدو قولي ذلك صراحة مثل نظرية طويلة المدىٰ حتمية متعنِّتة بقدر ما يمكن تخيله، وقد كان هناك بالتأكيد مؤرخون نظروا إلىٰ الجغرافيا بتلك الطريقة. إنَّ الفكرة تعود علىٰ الأقل إلىٰ هيرودوت المؤرخ اليوناني الذي يُقدَّر بكونه أبا التاريخ، والذي أصرَّ علىٰ أنَّ: «البلدان الغضة تُنجب رجالًا غضاضًا»، والذي خلص -مثل سلسلة من الحتميين منذ وقته- إلىٰ أنَّ الجغرافيا قد حتَّمت علىٰ موطنه العظمة. ولعلَّ أبرز مثال علىٰ هؤلاء الحتميين: إلسويرث هنتينجتون، وهو جغرافي من جامعة ييل قام بتنسيق كمية كبيرة من الإحصاءات في سنوات العقد الأول من القرن العشرين؛ كي يبرهن أنَّ مسقط رأسه (نيو هيفن، كونيتيكت) يكاد يكون مناخه مثاليًّا لتحفيز الناس علىٰ العظمة. (والأفضل منه فقط هو مناخ إنجلترا). وعلىٰ العكس من ذلك، خلص إلسويرث إلىٰ أنَّ «المناخ المثير بانتظام» لكاليفورنيا -حيث أسكن- أنتج فقط معدلات مرتفعة من حالات الجنون. وأكد هانتينجتون للقراء أنَّ «سكان كاليفورنيا ربما يشبهون الخيول التي تُثار إلىٰ الحد الأقصىٰ بحيث يصبح بعضها متعبًا بإفراطٍ وينهار».

ومن السهل السخرية من هذه الأقوال، ولكنَّني عندما أقول إنَّ الجغرافيا تفسر لماذا يُهيمن الغرب، فلدي شيء مختلف في ذهني إلىٰ حدٍّ ما (عمَّا سبق من أمثلة، م). فالفوارق الجغرافية لديها آثار طويلة المدىٰ، ولكنَّها ليست حتمية أبدًا، وما يُعدُّ ميزة جغرافية في مرحلة ما من التطور الاجتماعي قد يكون غيرَ مرتبطٍ أو عيبًا إيجابيًا في مرحلة أخرىٰ. وبوسعنا القول إنَّه بينما تدفع الجغرافيا التطور الاجتماعي، فإنَّ التطور الاجتماعي يحدد ما الذي تعنيه الجغرافيا. إنَّه طريق ذو اتجاهين.

ولتوضيح هذا بطريقة أفضل قليلًا، ولإعطاء خارطة طريق سريعة لبقية الكتاب؛ أود أن أنظر إلىٰ الوراء بمقدار عشرين ألف سنة، إلىٰ أبرد مرحلة في

العصر الجليدي الأخير. لقد كانت الجغرافيا حينئذٍ مهمة بقدر كبير: كانت كتل جليدية بسُمك ميل تغطي كثيرًا من مساحة نصف الكرة الشمالي، وأحاطت بأطرافها التندرا الجافة التي بالكاد تصلح للسكن، وفقط قُرب خط الاستواء تمكَّنت جماعات صغيرة من البشر من العيش بجمع الثمار والصيد. وكانت التمايزات حادة بين الجنوب (حيث يستطيع الناس العيش)، والشمال (حيث لا يستطيعون)، ولكن في المنطقة الجنوبية كانت التمايزات بين الشرق والغرب طفيفة نسبيًّا.

لقد غيَّرت نهاية العصر الجليدي معنىٰ الجغرافيا. فقد ظل القطبان الشمالي والجنوبي باردين وظل خط الاستواء حارًا، بالطبع، ولكن في ستة أماكن بين هذين النقيضين -وهي التي سأسميها في الفصل (٢) بالمراكز الأصلية- اجتمع الطقس الدافئ مع الجغرافيا المحلية لصالح نشوء النباتات و/أو الحيوانات التي أمكن للإنسان تدجينها (أي: تعديلها وراثيًا لجعلها أكثر فائدة، وصولًا في النهاية إلىٰ المرحلة التي تمكَّنت فيها الكائنات المحورة وراثيًا من العيش فقط في علاقة تكافلية مع البشر). ومن ثَمَّ أصبحت الحيوانات والنباتات المدجنة تعني المزيد من الغذاء، ممَّا يعني المزيد من الناس، وممَّا يعني المزيد من الابتكار؛ لكن التدجين كان يعني أيضًا المزيد من الضغوط علىٰ الموارد نفسها التي دفعت هذه العملية. ومن ثَمَّ بدأت مفارقة التطور في العمل مباشرة.

كانت هذه المناطق المركزية مثالًا نموذجيًّا إلىٰ حدٍّ ما للمناطق الدافئة نسبيًّا والصالحة للسكن في أثناء العصر الجليدي، لكنَّها الآن أصبحت أكثر تميزًا عن بقية العالم وعن بعضها البعض. فقد فضلت الجغرافيا تلك المناطق كلها، لكنَّها أيضًا فضلت بعضها علىٰ بعض. وكان لدىٰ إحدىٰ المناطق المركزية المسماة بهيلي فلانكس (Hilly Flanks) (وتعني التخوم كثيرة التلال، وهي المنطقة التي تنحني حول وديان نهري دجلة والفرات ووادي الأردن، وتحوّط الهلال الخصيب، م) في غرب أوروبا الآسيوية - كان لديها تجمعات كثيفة بشكل فريد من النباتات والحيوانات القابلة للتدجين؛ وبما أنَّ المجموعات البشرية تتشابه كثيرًا، فقد كانت تلك المنطقة -ذات الموارد الأوفر والعمليات الأسهل- هي

التي بدأ فيها التحرك تجاه التدجين. وكان ذلك حوالي عام ٩٥٠٠ ق. م.

وبتتبع ما آمل أنَّه هو المنطق، فإنَّني -طيلة هذا الكتاب- أستخدم كلمة «الغرب» لوصف جميع المجتمعات التي انحدرت من هذا المركز الواقع في أقصىٰ الغرب (والأقدم) بين المراكز الأوروآسيوية. وقد توسع الغرب منذ فترة طويلة من المركز الأصلي في جنوب غرب آسيا؛ ليشمل حوض البحر الأبيض المتوسط وأوروبا، وخلال القرون القليلة الماضية شمل الأمريكتين وأستراليا أيضًا. وكما آمُلُ أن يكون واضحًا، فإنَّ تعريف «الغرب» علىٰ هذا النحو (بدلًا من التركيز علىٰ بعض القيم «الغربية» المتفردة افتراضيًّا، مثل الحرية أو العقلانية أو التسامح، ثم الجدال حول منشأ هذه القيم، وأي أجزاء من العالم تمتلكها)، هذا التعريف لديه تبعات جوهرية لفهم العالم الذي نعيش فيه. وهدفي هو تفسير لماذا تهيمن الآن علىٰ العالم مجموعة معيّنة من المجتمعات التي تنحدر من المركز الغربي الأصلي، ولا سيما مجتمعات أمريكا الشمالية، بدلًا من المجتمعات التي في جزء آخر من الغرب أو تلك التي تنحدر من أحد المراكز الأخرىٰ، أو في الواقع بدلًا من ألَّا تهيمن أية مجتمعات علىٰ الإطلاق.

واتباعًا للمنطق نفسه، فإنَّني أستخدم «الشرق» للإشارة إلىٰ جميع تلك المجتمعات التي تنحدر من (ثاني أقدم) المراكز الأوروآسيوية وأقصاها شرقًا. فقد توسع الشرق أيضًا منذ زمن طويل من مركزه الأصلي بين النهر الأصفر ونهر يانغتسي في الصين، حيث بدأ تدجين النباتات في حوالي عام ٧٥٠٠ ق. م، واليوم يمتد من اليابان في الشمال إلىٰ بلدان الهند الصينية في الجنوب.

أما المجتمعات التي تنحدر من مراكز أخرىٰ - مركز جنوب شرقي في ما يعرف الآن بغينيا الجديدة، ومركز جنوب آسيوي في باكستان الحديثة وشمال الهند، ومركز أفريقي في الصحراء الكبرىٰ الشرقية، ومركزين للعالم الجديد في المكسيك وبيرو - فلديها جميعًا تاريخها الخاص الرائع. وأنا أتناول هذه المراكز مرارًا فيما يلي، ولكنَّني أركز باستمرار علىٰ المقارنات بين الشرق والغرب. وتعليلي لذلك: أنَّه منذ نهاية العصر الجليدي، فإنَّ أكثر المجتمعات تطورًا ظلت دومًا هي تلك التي انحدرت إمَّا من المركز الغربي وإمَّا من المركز الشرقي

الأصليين. وبينما يُعد سيناريو ألبرت في بكين بديلًا مقبولًا لسيناريو لوتي في بالمورال، فإنَّ سيناريو ألبرت في كوسكو أو دلهي أو غينيا الجديدة ليس كذلك؛ ولهذا فإنَّ أنجع طريقة لشرح (لماذا يهيمن الغرب) هي التركيز علىٰ المقارنات بين الشرق والغرب، وهذا هو ما فعلته.

إنَّ كتابة هذا الكتاب بهذه الطريقة لها تكاليفها، وسيكون السرد العالمي الأكثر ملاءمة والذي ينظر إلىٰ كل منطقة في العالم أغنىٰ وأدقَّ، وسيمنح مثل هذا السرد حضارات جنوب آسيا والأمريكتين ومناطق أخرىٰ التقديرَ الكامل لجميع إسهاماتها في الحضارة. ولكن مثل هذه الرؤية العالمية، ستكون لها مثالب لا سيما فقدان التركيز، وسوف تتطلب مزيدًا من الصفحات عن صفحات الكتاب الذي كتبت. وقد لاحظ صمويل جونسون، الأشد ذكاء في إنجلترا في القرن الثامن عشر في إحدىٰ المرات أنَّه في حين كان الجميع مُعجبًا بملحمة ميلتون الشعرية (الفردوس المفقود)، فإنَّه «لم يتمنَّ أحد أن تكون الملحمة أطول من ذلك»، وما ينطبق علىٰ ميلتون كما أظن ينطبق بشكل أكبر علىٰ أي شيء قد آتي به.

إذا كانت الجغرافيا قد قدمت بالفعل تفسيرًا طويل المدىٰ وحتميًا علىٰ طراز هيرودوت، فيمكنني أن أطوي هذا الكتاب بسرعة كبيرة فقط بعد أن أشير إلىٰ أن التدجين بدأ في المركز الغربي في حوالي ٩٥٠ ق.م، وفي المركز الشرقي في حوالي ٧٥٠٠ ق. م. كان التطور الاجتماعي الغربي ليبقىٰ ببساطة متقدمًا عن مثيله الشرقي بألفي سنة، ولمر الغرب بثورة صناعية في الوقت الذي لا يزال فيه الشرق يكتشف الكتابة. لكن من الواضح أنَّ ذلك لم يحدث. وكما سنرىٰ في الفصول التالية، فالجغرافيا لم تجعل التاريخ حتميًّا؛ لأنَّ المزايا الجغرافية انهزامية علىٰ الدوام. إنها تزيد من وتيرة التطور الاجتماعي، ولكن في أثناء العملية؛ فإنَّ التطور الاجتماعي يغيِّر ما تعنيه الجغرافيا.

وبارتفاع وتيرة التطور الاجتماعي تتسع المراكز، أحيانًا من خلال الهجرة وأحيانًا عن طريق التقليد أو الابتكار المستقل لجيرانها. وتنتشر الأساليب والطرق التي نجحت بشكلٍ جيد في مركز قديم -سواء كانت تلك الأساليب هي الزراعة

وحياة القرىٰ أو المدن والدول أو الإمبراطوريات العظمىٰ أو الصناعة الثقيلة- إلىٰ مجتمعات جديدة وبيئات جديدة. وفي بعض الأحيان ازدهرت هذه الأساليب في الأماكن الجديدة، وأحيانًا استمرت دون هدف، وأحيانًا تطلبت تعديلات كبيرة؛ لتنجح بأية حال من الأحوال.

قد يبدو هذا الأمر غريبًا، ولكن أكبر الإنجازات في التطور الاجتماعي أتت غالبًا في الأماكن حيث لم تنجح الأساليب المستوردة أو المنسوخة من مركز أكثر تقدمًا بشكل جيد. ويرجع ذلك أحيانًا إلىٰ أنَّ النضال من أجل تكييف الأساليب القديمة علىٰ البيئات الجديدة يُجبر الناس علىٰ تحقيق تقدم مفاجئ، وأحيانًا يكون ذلك بسبب أنَّ العوامل الجغرافية التي لا تهم كثيرًا في مرحلة ما من التطور الاجتماعي تهم أكثر بكثير في مرحلة أخرىٰ.

قبل خمسة آلاف سنة -علىٰ سبيل المثال- كانت حقيقة أنَّ كلًا من البرتغال وأسبانيا وفرنسا وبريطانيا تتوسع خارج أوروبا إلىٰ المحيط الأطلسي بمثابة عائق جغرافي ضخم، ممَّا يعني أنَّ هذه المناطق كانت بعيدة جدًّا عن الحراك الفعلي في بلاد الرافدين ومصر. ولكن منذ خمسمائة سنة، ارتفع التطور الاجتماعي كثيرًا لدرجة أن غيَّرت الجغرافيا معانيها. فقد أصبحت هناك أنواع جديدة من السفن بإمكانها عبور ما ظلَ يُعدُّ -دائمًا- محيطات لا يمكن اجتيازها، وقد جعل ذلك فجأة من التوسع داخل المحيط الأطلنطي فائدة كبيرة. لقد كانت السفن البرتغالية والأسبانية والفرنسية والإنجليزية هي التي بدأت الإبحار للأمريكتين والصين واليابان عوضًا عن السفن المصرية أو العراقية. كان الأوروبيون الغربيون هم الذين بدؤوا ربط العالم بالتجارة البحرية، ومن ثَمَّ ارتفع التطور الاجتماعي الغرب أوروبي عاليًا متفوقًا علىٰ المركز الأقدم في منطقة شرق البحر المتوسط.

وأسمي هذا النمط: «مزايا التخلف»، وهو قديم قدم التطور الاجتماعي نفسه. فعلىٰ سبيل المثال: حينما بدأت القرىٰ الزراعية في التحول إلىٰ مدن سريعًا (بعد عام ٤٠٠٠ ق. م في الغرب، وعام ٢٠٠٠ ق. م في الشرق)، أصبح الوصول إلىٰ تُرَب ومناخات معينة حبّذت الظهور الأول للزراعة، أقل أهمية من الوصول إلىٰ الأنهار الكبيرة التي يمكن استغلالها في ري الحقول أو باعتبارها

طرقًا تجارية. وحين ظلت الدول تتوسع، أصبح الوصول إلىٰ الأنهار الكبيرة أقل أهمية من الوصول إلىٰ المعادن، أو إلىٰ الطرق التجارية الأطول أو إلىٰ مصادر القوىٰ العاملة. فبتغيّر التطور الاجتماعي تتغيَّر الموارد التي يتطلبها أيضًا، وقد تكتشف المناطق التي لم تكن ذات أهمية مزايا في تخلّفها.

ومن الصعب دومًا أن نتنبأ كيف ستنتهي مزايا التخلف: فليست كل أشكال التخلف متساوية. فعلىٰ سبيل المثال: منذ أربعمائة عام مضت، بدا للعديد من الأوروبيين أنَّ مزارع منطقة البحر الكاريبي المزدهرة كانت تمتلك مستقبلًا أكثر إشراقًا من مزارع أمريكا الشمالية. وبالاستدراك المتأخر يمكننا أن نرىٰ لماذا تحولت هايتي إلىٰ أفقر بلد في نصف الكرة الغربي، والولايات المتحدة إلىٰ أغناها، ولكن التنبؤ بهذه النتائج أصعب بكثير.

كانت إحدىٰ أوضح تبعات مزايا التخلف هي أنَّ المنطقة الأكثر تقدمًا في كل مركز تحرَّكت عبر الزمن؛ ففي الغرب نزحت من هيلي فلانكس (في عصر المزارعين الأوائل) جنوبًا إلىٰ وديان النهر في بلاد الرافدين ومصر حين نشأت الدول، ثم غربًا إلىٰ حوض البحر المتوسط عندما أصبحت التجارة والإمبراطوريات أكثر أهمية. وفي الشرق، نزحت شمالًا من المنطقة الواقعة بين النهر الأصفر ونهر يانغتسي إلىٰ حوض النهر الأصفر ذاته، ثم غربًا إلىٰ نهر وي ومنطقة تشين.

وكانت إحدىٰ التبعات الثانية لمزايا التخلف هي تذبذب ريادة الغرب في التطور الاجتماعي، جزئيًّا بسبب أنَّ الموارد الحيوية -النباتات والحيوانات البرييتين والأنهار والطرق التجارية والقوىٰ العاملة- كانت موزعة بطرق مختلفة عبر كل مركز، وجزئيًّا بسبب أنَّ في كلا المركزين كانت عمليات التوسع وإدماج موارد جديدة عملية عنيفة وغير مستقرة، ممَّا دفع إلىٰ تسارع مفارقة التطور. فقد جعل نمو الدول الغربية في الألفية الثانية قبل الميلاد، علىٰ سبيل المثال، البحر الأبيض المتوسط ليس فقط طريقًا رئيسًا للتجارة ولكن أيضًا طريقًا رئيسًا للقوىٰ المُعيقة. ففي حوالي عام ١٢٠٠ ق. م، فقدت الدول الغربية السيطرة، وأطلقت كل من الهجرات وإخفاقات الدول والمجاعات والأوبئة انهيارًا علىٰ امتداد

المركز، لكن لم يمر الشرق الذي لا يمتلك بحارًا داخلية بانهيار مماثل، وبحلول عام ١٠٠٠ ق. م، تقلصت ريادة الغرب في التطور الاجتماعي بشكلٍ حاد.

وعلىٰ مدار أكثر من الثلاثة آلاف سنة التي تلت، استمر النمط نفسه مرارًا مع عواقب دائمة التغيُّر. فقد حددت الجغرافيا مواقع ارتفاع وتيرة التطور الاجتماعي بشكل أسرع في العالم، لكن التطور الاجتماعي المرتفع غيّر معنىٰ الجغرافيا. وفي المراحل المختلفة كانت كل من السهوب العظمىٰ التي تربط أوروبا الآسيوية الشرقية والغربية، وأراضي الأرز الغنيَّة في جنوب الصين، والمحيط الهندي، والمحيط الأطلسي -كانت جميعها في غاية الأهمية؛ وعندما بزغ الأطلسي في القرن السابع عشر أنشأ أولئك الذين كانوا في أفضل وضع لاستغلاله- في البداية بريطانيا في الأساس، ثم مستعمروهم السابقون في أمريكا - أنواعًا جديدة من الإمبراطوريات والاقتصادات، وحرروا الطاقة المأسورة في الوقود الأحفوري. وهذا -كما سأجادل- هو سبب هيمنة الغرب.

الخطة

*** قسمت الفصول التالية إلىٰ ثلاثة أجزاء:**

*** الجزء الأول (الفصول ١ - ٣)**: يتعرض لأكثر المشكلات الأساسية: ما هو الغرب؟ من أين نبدأ قصتنا؟ ماذا نعني «بالهيمنة«؟ كيف يمكننا القول: من الذي يقود أو يهيمن؟

في الفصل الأول: أستعرض الأساس البيولوجي للقصة في نشوء الإنسان الحديث وانتشاره علىٰ كوكب الأرض.

وفي الفصل الثاني: أتتبع تشكل المراكز الشرقية والغربية الأصلية ونموها بعد العصر الجليدي.

وفي الفصل الثالث: أكسر السرد لتعريف التطور الاجتماعي، وشرح كيف سأستخدمه لقياس الاختلافات بين الشرق والغرب.

*** في الجزء الثاني (الفصول ٤ - ١٠)**: أتتبع قصص الشرق والغرب بالتفصيل، متسائلًا باستمرار عمَّا يفسر أوجه الشبه والاختلاف بينهما.

وفي الفصل الرابع: أفحص قيام أولىٰ الدول والمُعيقات الكبرىٰ التي حطمت المركز الغربي في القرون إلىٰ ١٢٠٠ ق. م.

وفي الفصل الخامس: آخذ بعين الاعتبار الإمبراطوريات الشرقية والغربية العظمىٰ الأولىٰ، وكيف ازداد تطورها الاجتماعي إلىٰ حدود ما كان ممكنًا في الاقتصادات الزراعية.

ثم في الفصل السادس: أناقش الانهيار الكبير الذي اجتاح أوروبا الآسيوية بعد حوالي عام ١٥٠ ق. م.

وفي الفصل السابع: نصل إلىٰ نقطة تحول، حيث يفتتح الشرق جبهة جديدة ويتخذ الصدارة في التطور الاجتماعي. وبحلول عام ١١٠٠ ق. م تقريبًا كان الشرق يندفع عبر حدود الممكن في عالم زراعي.

ولكن في الفصل الثامن: سنرىٰ كيف أدىٰ ذلك لانهيار ثانٍ كبير.

وفي الفصل التاسع: أصف الجبهات الجديدة التي أنشأتها الإمبراطوريات الشرقية والغربية علىٰ السهوب وعبر المحيطات بينما كانت تلك الإمبراطوريات تتعافىٰ، وأتفحَّص كيف أغلق الغرب فجوة التطور في وجه الشرق.

وأخيرًا، في الفصل العاشر: سنرىٰ كيف حولت الثورة الصناعية صدارة الغرب إلىٰ هيمنة والنتائج الهائلة لذلك.

* **وفي الجزء الثالث (الفصلان ١١، ١٢)**: أنتقل إلىٰ السؤال الأهم بالنسبة إلىٰ أي مؤرخ: ماذا بعد؟

أولًا، في الفصل الحادي عشر: أستجمع جدالي بأنَّ وراء كل تفاصيل ما حدث خلال الخمسة عشر ألف سنة الأخيرة، حددت مجموعتان من القوانين (قوانين البيولوجيا، وعلم الاجتماع) نمط التاريخ علىٰ نطاق عالمي، في حين أنَّ مجموعة ثالثة من القوانين (قوانين الجغرافيا) حددت الاختلافات بين التطور الشرقي والغربي. لقد كان استمرار التفاعل بين هذه القوانين، وليس النظريات طويلة المدىٰ الحتمية أو العوارض قصيرة المدىٰ، هي التي أرسلت لوتي إلىٰ بالمورال بدلًا من ألبرت إلىٰ بكين.

هكذا يتحدث المؤرخون عادة عن الماضي، فمعظم العلماء يبحثون عن التفسيرات في الثقافة والمعتقدات والقيم والمؤسسات أو الصُدف العمياء بدلًا من الأسطح الصلبة للواقع المادي، وقليل منهم يفضل الموت علىٰ التحدث عن القوانين.

ولكن بعد دراسة بعض هذه البدائل (ورفضها)، أود الذهاب لخطوة أبعد من ذلك، **مُشيرًا في الفصل الثاني عشر**: إلىٰ أن قوانين التاريخ -في الحقيقة-

تعطينا انطباعًا جيدًا جدًّا عمَّا سيحدث بعد ذلك علىٰ الأرجح. فالتاريخ لم ينتهِ بهيمنة الغرب؛ فما زالت كل من مفارقة التطور ومزايا التخلف تعملان، وما زال السباق بين الابتكارات التي تقود التطور الاجتماعي إلىٰ أعلىٰ والمُعيقات التي تجذبه لأسفل دائرًا. وفي الحقيقة، سأشير إلىٰ أن السباق أصبح أكثر سخونة من أي وقت مضىٰ. فالأنواع الجديدة للتطور والإعاقة تَعِد -أو تهدد- بتحويل ليس فقط الجغرافيا، ولكن علم الأحياء وعلم الاجتماع أيضًا. وليس السؤال الكبير في عصرنا ما إذا كان الغرب سيواصل الهيمنة أم لا، وإنَّما ما إذا كانت البشرية ككل سوف تحرز تقدمًا مفاجئًا إلىٰ نوع جديد تمامًا من الوجود قبل أن تضربنا الكارثة بشكل دائم.